الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشعبيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أحمد بن يحي الونشريسي تيسمسيلت
كلية الآداب واللغـــــــات
قســـم اللّغة والأدب العربيّ

مذكّرة مقدّمة ضمن متطلّبات نيل شهادة التخرّج ماستر موسومة :.

دراسة كتاب
دراسات في الشعر الجاهلي
"يوسف خليف"

إعداد الطالبتين:
– بونعامة بختة
– جايد عائشة

إشراف:
د/ فتوح محمود

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د. دردار بشير	رئيسا
د. فتوح محمود	مشرفا ومقررا
د.بن سعيد بشير	مناقشا

الموسم الجامعيّ: 1440- 1441هـ/ 2020- 2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وعـــرفان

الشكر و الحمد أولا و اخرا للمولى عز و جل الذي انعم علينا بالتوفيق و الصحة و الصلاة و السلام على سيد الانبياء محمد صلى الله عليه وسلم .

نتقدم بجزيل الشكر لأستاذ الفاضل فتوح محمود الذي قبل تأطيرنا و منحنا الثقة ، و الذي لم يبخل علينا بوقته و جهده طيلة فترة البحث بتوجهاته القيمة و إرشاداته المنهجية التي أتاحت لنا السير على المنهج السليم ، فكان له جميل الأثر في ظهور هذا البحث الى النور و نسأل الله عز وجل أن يجزيه خير جزاء.

كما نتقدم بشكر كل أساتذة قسم اللغة العربية و آدابها كل باسمه.

إهداء....

أهدي عملي إلى سندي في الحياة و منبع سعادتي أبي الغالي أطال الله في عمره .

الى التي أنارت دربي و رافقتني في أفراحي و أحزاني التي سهرت الليالي من أجل نجاحي أمي الغالية أطال الله في عمرها .

الى أعز و أغلى الكنوز إخواني و أخواتي كل باسمه .

الى العائلة الكريمة .

الى زميلاتي و رفيقات دربي كل باسمها

بختة

إهداء..

أهدي عملي من ربياني صغيرا الى كل من علمي و أخذ بيدي الى طريق العلم و المعرفة أبي الغالي أطال الله في عمره و الى من أفتخر بها أمي الغالية أطال الله في عمرها .

إلى الذين تقاسمنا حلاوة و مرارة الدنيا إخواني و أخواتي .

و إلى صديقاتي التي أعتز بهم

الى من عرفته ذاكرتي سواء من قريب أو بعيد

عائشة

بطاقة فنية

بطاقة فنية للكتاب :

- **المؤلف : يوسف خليف**
- **عنوان الكتاب : دراسات في الشعر الجاهلي**
- **دار النشر : الغريب**
- **البلد : مصر**
- **الطبعة : دون طبعة**
- **السنة : دون تاريخ**
- **حجم الكتاب : متوسط**
- **عدد الصفحات : 191 صفحة**

توصيف الكتاب : الغلاف الخارجي للكتاب (الواجهة) هو أصفر يعلوه عنوان الكتاب بخط أسود كبير وعلى يساره اسم الكاتب يتوسطه مجموعة من الصور وهي (الناقة، الفرس، شجرة النخيل وخلفها شمس على وشك الغروب وفي الأسفل دار النشر دار الغريب للطباعة والتوزيع، بلد القاهرة وفي خلفية الكتاب يوجد جزء من المقدمة.

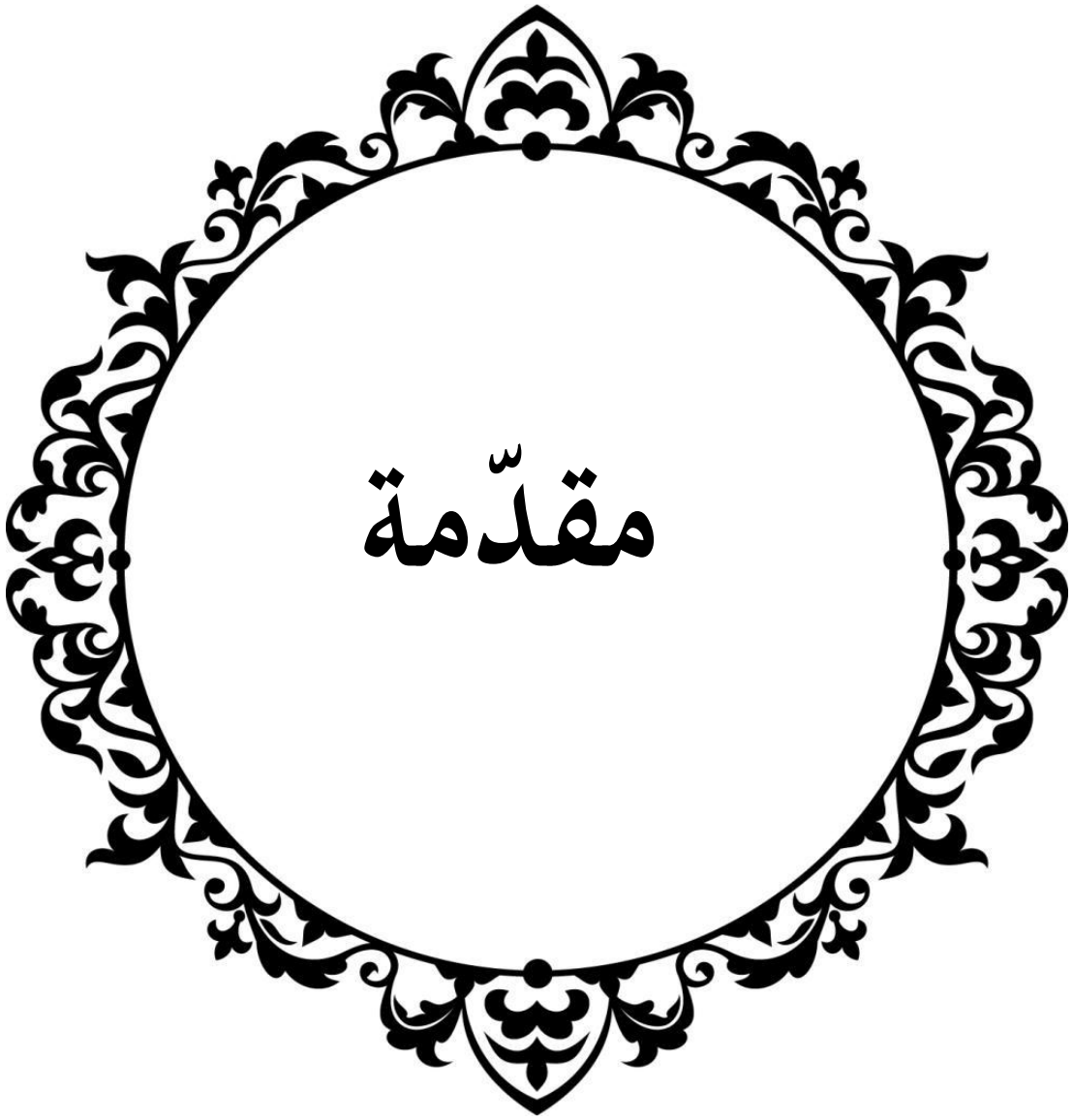

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، الهادي إلى الرشاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الخلق وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم القيامة أما بعد:

فيعد الشعر العربي الجاهلي تراث إبداعي قديم، حظي منذ نشأته الأولى باهتمام كبير من قبل العلماء والأدباء والنقاد باعتباره ديوانهم الأول الذي سجّل مآثرهم ومفاخرهم لأجل ذلك انكبوا على روايته وتفسير مبهمة ثم جمعه وتسجيله ودراسته من جميع النواحي، سواء من ناحية البيئة التي نشأ فيها أو من الناحية السياسية أو الاجتماعية... إلخ.

وبالرغم من كل ذلك إلاّ أنه وجد مشكلات لا تزال عالقة، يدور حولها الجدل والتساؤلات ولعل أهم هذه التساؤلات نجد: هل الشعر الجاهلي وصل إلينا مدونا أو مرويا ؟ وهل وصل إلينا بالصورة المتعارف عليها ؟

كل هذه الأسئلة وغيرها جعلتنا في رحلة البحث عن كتاب يتناول الموضوع بالطرح والنقاش للقضاء على ضبابية بعض التساؤلات للجواب عن القضايا التي سال حولها الكثير من الحبر، فدُّونت الكثير من الأعمال النقدية لدراسة موضوع الشعر الجاهلي.

وكان محطة اهتمامنا اختيارنا لمدونة تتحدث عن الشعر الجاهلي في كتاب: دراسات في الشعر الجاهلي ليوسف خليف، الذي طالعنا من خلاله على الكثير من التساؤلات التي طرحت حول الشعر الجاهلي.

ولعل من أهم الأسباب التي دفعتنا إلى دراسة هذا المؤلف هو أولا:

_ تخصصنا في مجال الأدب العربي القديم

_ وكذا حب الاطلاع على تاريخ الأدب العربي القديم وخاصة العصر الجاهلي.

وقد فرض علينا الكتاب أن نشتغل على المنهج الوصفي التاريخي خاصة في إطار تتبع مراحل نشأة وتشكل الشعر الجاهلي ثم تطوره.

أما بالنسبة إلى الخطة فقد تتبعنا التحليل والتلخيص لأهم ما جاء في الكتاب حيث تطرق فيه إلى عناصر وهي كالتالي :

- الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين.
- أولية الشعر الجاهلي.
- ما بعد أولية.
- مقدمة القصيدة الجاهلية محاولة جديدة لتفسيرها.
- مقدمة الأطلال في القصيدة الجاهلية، دراسة موضوعية وفنية.
- صور أخرى من المقدمات الجاهلية، اتجاهات ومثل.
- الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية.
- نحو نظرية جديدة : تقسيم جديد للعصر الجاهلي.

ومما لا شك فيه أن دراستنا لقيت بعض الصعوبات ومن أبرزها عدم التحكم في المادة المعرفية، لكثرة المؤلفات والكتب التي اهتمت بالشعر الجاهلي.

وفي الأخير نتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ المشرف فتوح محمود الذي لم يبخل بتقديم النصائح والتوجيهات وكان لنا سندا ونعم العون.

تيسمسيلت في 2021/06/29

بونعامة بختة

جايد عائشة

مدخل

أولا : السيرة الذاتية للكاتب

يوسف عبد القادر خليف (1341 هـ1922 / م 1415 / هـ1995 / م) أديب مصري حصل على الليسانس من قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة1944 م والماجستير1950 م والدكتوراه1956 م .تخصص في تاريخ العرب في صدر الإسلام وقبل الإسلام. وله أكثر من 22 كتاباً.

عين عميداً في جامعة القاهرة1950 م وتدرج إلى ان صار رئيساً لقسم اللغة العربية. حصل على جائزة الملك فيصل1988 م وجائزة الدولة التقديرية 1993 كان عضواً في لجان المجلس الأعلى للثقافة والمجالس القومية المتخصصة وعدة لجان أخرى. أصدر ديواناً شعرياً بعنوان "قمم" ومواقع النجوم و عدة دراسات أدبية، من أهمها: "أوراق في الشعر ونقده" "والحب المثالي عند العرب" و"حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني الهجري" و"صحابة في الظل" و"الحنفاء قبل الإسلام" و"دراسات في الشعر الجاهلي" ، "عكاظ سوق ومسرح سياسي وفكاهي وأدبي" و"الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي"[1]

أهم مؤلفاته

- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، 1959
- حياة الشعر في الكوفة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1968
- في الشعر العباسي نحو منهج جديد، 1990
- مناهج البحث الأدبي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1997
- الحب المثالي عند العرب، الهئية المصرية العامة للكتاب، 1998
- في الشعر الأموي دراسة في البيئات، دار غريب، 2000
- دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب، 2001

[1] -https://ar.wikipedia.org/wiki/

- مواقف بين الشعر والنقد، دار غريب، 2005

ثانيا : تحليل مصطلحات العنوان

1. مفهوم الشعر :

لقد تعددت التعاريف والشروحات حول مفهوم الشعر في الأدب العربي حيث ورد في لسان العرب لابن منظور : "يقال شعر فلان وشعر يشعر شعرا وهو الاسم وسمي الشاعر شاعر لفطنته، ويقول أيضا الشعر منظوم القول غلب عليه شرفه بالوزن والقافية وإن كان كل علوم شعرا من حيث الفقه على علوم الشرع"[1].

وجاء في معجم الوسيط "شعر فلان شعرا : قال الشعر يقال شعر له قال له شعرا وبه شعورا أحسن به وعلم"[2]

اصطلاحا :

يعرفه ابن سلام الجمحي فيقول :"الشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات منها ما تثقفه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد ومنه ما يثقفه اللسان"[3]

ويعرفه ابن طباطبا "فهو كل كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في محيطاتهم، بما حظي به من النظم الذي إن عدل عن جهته متجه الأسماع، وفسد على الذوق، ونطقه معلوم محدود فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة عن نظم الشعر بالعروض التي هي ميزاته ومن اضطرب عليه الذوق ولم يستحضر من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذف به حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لاتكلف معه"[4]

2. الجاهلية :

[1]-ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1990 ص132

[2]-شعبان عبد العاطي، معجم الوسيط، دار المجمع اللغة ع، مصر، ط2004،4،ص484

[3]-ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، محمود شاكر، دار المدني، د.ط.د.ط.ج1 ص5

[4]-محمد أحمد ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2005، ص9

تطلق تسمية الجاهلية على الحقبة التي سبقت ظهور الإسلام، وقد ظن فريق من الناس أن سبب هذه التسمية يعود لجهل الناس الدين، أو لجهلهم القراءة والكتابة، ولكن هذين التفسيرين مردودان، والحقيقة تتضح عندما نستنطق بعض آيات القرآن الكريم توصلا إلى معرفة هذه التسمية.

لقد جاء في القرآن الكريم : { **وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**}

وورد في الحديث أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر وكان قد عير رجلا بأمه **"إنك رجل فيك جاهلية"**

وقال الشاعر عمرو بن كلثوم :

" ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا.

وهكذا يتضح لنا أن كلمة "الجاهلية" تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة وهذه الصفات كانت بارزة في سلوك العرب قبل الإسلام، فسمي ذاك العصر بالجاهلية من مطلع الإسلام فقط.

يتفق المؤرخون على جعل الفترة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام قسمين يطلق الأول منها اسم "الجاهلية الأولى" ، وهي تعود إلى ما قبل القرن الخامس للميلاد، ويكشف الغموض تاريخها، فضلا على وأن شيئا من الأدب لم يصلنا منها، فلم يبق سوى بعض النقوش والكتابات وما تناقله المحدثون وما ذكره القرآن الكريم مدنيات الجنوب وأخبار العرب البائدة وأخبار انفجار سد مأرب وسواها.

أما القسم الثاني الذي يطلق عليه اسم الجاهلية الثانية فهو يمتد من حدود سنة 500م حتى هجرة النبي والمسلمين إلى يثرب سنة 622م، ومن هذه الحقبة وصلنا شعر ونثر قليل، وهو ما نسميه الأدب الجاهلي.[1]

ثالثا : وصف الكتاب ودواعي تأليفه

وصف الكتاب : الكتاب الذي يتم تناوله في هذه الدراسة موسوم بعنوان دراسات في الشعر الجاهلي للدكتور يوسف خليف ركز في دراسته على الشعر العربي الجاهلي حيث ابتدأ بمقدمة تتحدث عن نبذة تاريخية عن الشعر العربي القديم لينتقل في كتابه إلى دراسة أهم المشكلات التي عالجها وهذه المشكلات هي عبارة عن عناوين للكتاب.

وإن لكل كتاب يؤلف في أي علم من العلوم هدف يسعى إلى تحقيقه ولقد كان الهدف من هذا الكتاب هو الكشف عن الغموض الموجود في الشعر الجاهلي، وللإجابة عن بعض المشكلات ولعل أهمها:

أولية الشعر الجاهلي ومشكلة مقدمات القصائد الطلبية وغير الطللية وغير الطللية، ومشكلة الشعر الجاهلي بين الفردية والقبلية.

رابعا : دراسة سيمائية لواجهة الكتاب

الصورة الموجودة في واجهة الكتاب هي عبارة عن فرس وناقة وشمس ونخل بالإضافة إلى لون الغلاف فهو أصفر، واللون الأصفر يوحي إلى الصحراء الموجودة في البلاد العربية (شبه الجزيرة العربية والقارة الإفريقية)، أما بالنسبة للحيوانات الموجودة فهي صور معبرة عن الحياة الجاهلية ومنسجمة مع العنوان، فوجود الناقة والفرس على الواجهة يوحي إلى ما هو داخل الكتاب ألا وهو العصر الجاهلي أو القديم للدلالة على أصالة وبداوة العربي.

فالناقة كما هو معروف هي أبرز الحيوانات التي عني بها منذ القديم حيث تعد مصدر الخير والرزق لأهل الصحراء فهي رفيقة السفر الصابرة على التعب وتحمل المشقة، ومن خلالها قام

[1]-أحمد الفاضل، تاريخ وعصور الأدب العربي، دار الفكر اللبناني بيروت، ط1 سنة 2003، ص2423.

العرب برسم لوحات فنية لها وصوروها في أغلب كتب العصر الجاهلي القديم حيث تظهر فروسيته وقوته مع فرسه الذي هو بمثابة رمز للشجاعة والفحولة والبطولة.

والنخلة والشمس كانتا من الأشياء المقدسة عند الجاهليين لأن شجرة النخلة تقاوم طبيعة الصحراء وثمارها فائدة للأجسام ومقاومة للأسقام، والشمس كانت بمثابة النور الساطع على الصحراء العربية.

خامسا : المنهج المتبع

إنّ قراءة يوسف خليف لدراسات الشعر الجاهلي كغيرها من القراءات والمؤلفات التي تناولت الأدب العربي القديم والتي اعتمدت على منهج معين في استقراء النصوص وإصدار الأحكام في النقد والتحليل ومن خلال قراءتنا لهذا المنجز تبين لنا أن المؤلف قد اعتمد على المنهج التاريخي الذي كان سائدا في النص.

وقد يظهر ملامح هذا المنهج في قراءة يوسف خليف من خلال أول عتبة في كتابه وهي العنوان حيث صاغه على الشكل التالي : دراسات في الشعر الجاهلي وتحديد العصر الجاهلي، وهو إحدى ملامح المنهج التاريخي الذي يهتم بالظاهرة الأدبية في مراحلها التاريخية المختلفة.

سادسا : أهم الموارد التي اعتمد عليها في المادة المعرفية

لقد اعتمد يوسف خليف في كتابه "دراسات في الشعر الجاهلي" على مادة معرفيةمتنوعة وهي أمهات الكتب :

- القرآن الكريم
- السيوطي، الإتقان
- الجهشياري، الوزراء والكتاب
- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي
- أحمد الخوفي، المرأة في الشعر الجاهلي

- الأصفهاني، الأغاني
- البغدادي، حزانة الأدب
- ابن قتيبة، اشعر والشعراء
- الصاحبي، في فقه اللغة
- ابن رشيق، العمدة
- ابن نديم، خبر في الفهرس
- الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين
- القالي، ذيل الأمالي
- شوقي ضيف، العصر الجاهلي
- ابن فارس، مقاييس اللغة
- الجاحظ، البيان والتبين
- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء
- عبد ربه العقد، الفريد
- ابن جني، الخصائص
- ديوان امرئ القيس
- جواد على، المفضل في تاريخ العرب قبل الإسلام
- التبريزي، شرح القصائد العشر
- الزمخشري، أساس البلاغة
- المرزباني، الموشح
- ابن أنباري، شرح المفضليات

الفصل الأول

تلخيص الكتاب

تمهيد :

تعد دراسة الشعر الجاهلي من أهم الدراسات الأدبية التي عني بها النقاد العرب والباحثون والدارسون، لأن الشعر الجاهلي هو ديوان العرب فهو يصور حياتهم ورسومهم، وعلى الرغم من ذلك فقد اختلف الكثير حول كيفية الوصول لهذا الشعر إلينا، ما جعل محاولة الكاتب يوسف خليف في بداية كتابه أن يخصص جزئية للشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين.

ويقر بأن العرب كانت تعرف الكتابة، وذلك من خلال الشهادات التي تدل على ذلك سواء شهادة الواقع التاريخي، أو النصوص الأدبية، وبأن العرب لم تكن متخلفة حضاريا، وإنما كانت على تواصل مع حضارات أجنبية، إما عن طريق التجارة، أو التغلغل السياسي.

فالحياة في تلك الفترة كانت تعتمد على أسلوبين من أساليب الحياة الاجتماعية، الحياة في البادية (العيش في القبائل)، الحياة في المدينة، فالمدني هو المعروف والمعني بالكتابة لأن المجتمع والظروف هناك كانت تتطلب الكتابة خصوصا المدن التجارية فمثلا مكة لابد من وجود الكتابة لأنها تمثل عنصرا أساسيا، وما يثبت صحة وجود الكتابة في مكة، أخبار وصحف قريش التي كتبها بني هاشم، كما أن الرسول –صلى الله عليه وسلم- يكلف الصحابة بكتابة الوحي والقرآن الكريم، الذي أشار إلى وجود جماعات من القصاص يكتبون أخبار الأوائل على غرار البدو، فكانت الكتابة هزيلة، وحسب رأي الكاتب أنه لا نملك الأدلة الثابتة اليقينية التي تثبت وجود الكتابة في البادية. [1]

حتى إن وجدت وعنيت بالطبقات المستنيرة أمثال : النابغة الذبياني والربيع بن زياد العبسي، وامرئ القيس...إلخ.

ورغم معرفة هؤلاء للكتابة إلاّ أن الكاتب شكك في قضية تدوين شعر هؤلاء في عصرهم، ففي تلك الفترة الكتابة كانت ظاهرة حضارية لا ظاهرة حيوية، وهذا الذي لم يتحقق في المجتمع الجاهلي، إلاّ القليل من الشعراء الذين اضطروا لكتابة شعرهم لظروف معينة حسب ما وصلنا من أحاديثالرواة والقصص التي تدور الأسرى والعشاق.

[1]–ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار الغريب، القاهرة، ط1 سنة 1981، ص9-15

وممّا يجعلنا أن لا نطمئن ونصدق أن معلقات هؤلاء الشعراء كتبت وعلقت على جدار مكة، ممّا جعل الكثير يطرح العديد من التساؤلات.

وأولها : أن بن عبد ربه هو أول من تحدث عن قضية المعلقات، على الرغم من وجود الرواة القدماء، ولم يذكروا قضيتها إضافة إلى أن حماد الراوي هو الذي جمع المعلقات.

- أين كانت هاته المعلقات أثناءالفتح ؟
- وكيف كتبت هذه المعلقات الذي كان القرآن الكريم يكتب في اللحاف والعسب ؟

وفي ظل قضية المعلقات هناك من يقول أشعارها كانت في الكراريس ودفنت في القصر الأبيض (قصر نعمان بن المنذر) وحين استظهارها نسوها إلى الملك والشعراء الذين ينتمون إليه، وهذا ما شكل فكرة أن أهل الكوفة على دراية من أهل البصرة. لينشق البلدين إلى معسكرين متناظرين، على الرغم من أن هذا الأمر الخطير لمللم يتحدث عنه المؤرخين، حتى جاء حماد الراوي في القرن الثاني تحدث عن هذه القصية، وهذا ما يجعلنا نأخذ بفكرة أن الشعر كان للملك ونسب إليه مع عائلته وهذا ما يثبت أن الكتابة استخدمت لظروف معينة للتدوين، وفي ظل غياب أدلة كتابة هذا الشعر الذي تبنى حقيقته على الاحتمال يؤدي إلى تأكيد الأدلة الحقيقية التي كانت لدى الرواية الشفوية، والتي كانت الوسيلة الأساسية لحفظ الشعر الجاهلي، وكان الرواة منفع جاهلي يتلقونه، ويحفظونه من خلال المشافهة والسماع، حيث كل شاعر راو رواة يلازموه لينشروه بين الناس، وكان الشاعر والراوي بمثابة الوسيط بين الشاعر والجماهير، ومن أهم الرواة للشعراء نجد : أوس بن حجر راوية لطفيل الغنوي، زهير بن أبي سلمى راوي لأبيه، والراوي بالغ الأهمية في حمل أمانة الأدب العربي، وكان العرب أشد حرصا لنقله مشافهة، ومن بينهم رواة القبائل الذين كانوا يعبرون عن قبيلتهم ويتحدثون بلسانها عن آمالها وآلامها.

في بداية القرن الأول ظهر الإسلام في الجزيرة العربية بحيث اهتم العرب ب : حفظ القرآن الكريم وتعليمه في الوطن العربي، والجهاد للمحافظة عليه إلاّ أنهم لم ينشغلوا عن حفظ الشعر ونقل نصوصه، لأنه كان كيانا لا ينفصل عنهم وهذا ما جعل الكاتب يخالف ابن سلام الجمحي في قوله :

أن العرب تخلوا عن الشعر وروايته وما يثبت صحة قول الكاتب أن العرب ظلوا ينشدون الشعر بعد الإسلام، كونه رفيق لهم في الحروب وملازما لهم في غربتهم، وفي ذاكرتهم وكأنه قطعة غالية يحملونها معهم، بحيث كان حبهم له سبب في نضوج الشعر الفتوح الإسلامي. [1]

وعلى الرغم من تطور الحضارة وانتشار الكتابة في تلك الفترة، إلاّ أن العرب لم يستخدموها في تسجيل شعرهم، وظلوا كباقي عهدهم يعتمدون على الرواية الشفوية ويحفظونه من جيل إلى جيل ولم يدون، والحال نفسه بالنسبة للحديث النبوي على قداسته وأهميته، هو كذلك لم يدون وبقي يؤخذ عن الصحابة، والصحابة يأخذونه عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي أواخر القرن الأول بدأت الحضارة الإسلامية تحتك بالحضارة الأجنبية وتأثيرها بها مع جعل الناس يؤمنون أن الكتابة وسيلة أساسية للمحافظة على علمهم فبدأت محاولات للشعراء يدونون شعرهم، ولعل أولهم الكميت وصديقه الطرماح. فهذه المرحلة تعد نقطة تحول في تاريخ الثقافة العربية، مما أدى إلى ظهور طبقات من شعراء المدينة وهم : الرواة المحترفون الذين كانوا ينشغلون في جمع الشعر والاتصال بأبناء القبيلة الذين لا يزالون يحتفظون بتراثهم القديم، وأن أهل البادية (الأعراب) الذين كانوا ينقلون شعرهم في المراكز الثقافية التي كانت موجودة في تلك الفترة.

ومن أهم المدن التي ينتمي إليها الرواة هي المدينتان العراقيتان البصرة والكوفة اللتان تركزت فيهما المدرستان ومن زعماء مدرسة البصرة الراوي العربي أبي عمرو بن العلاء، وزعيم مدرسة الكوفة حماد، بحيث يتميز أبي عمر بقراءة القرآن على عكس حماد فكان خليع العصر بنشر الانحلال والفساد في المجتمع، ومن خلال هذه النظرية يشكك العديد من الباحثين في صحة مروياته، ممّا حاول بعضهم رفع الاتهام عن حماد، ليظهر لنا راويين آخرين هما : خلف الأحمر (البصرة) والمفضل الضبي (الكوفة) وكان الموقف معهما العكس مع سالفيهما، تبين ذلك من اعتراف خلف الأحمر في قوله : "كنت

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص18-26

آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول". والأمر الذي يؤكد ذلك النصوص بدأت عملية جمع الشعر الجاهلي وتدوينه. [1]

وعلى الرواة مهمتان هما :

مهمة جمع النصوص الشعرية والأخبار المتعلقة بها، ثم مهمة تصفية المواد المجموعة، وقد استطاع هؤلاء أن ينهضوا بهاتين المهمتين والاقتراب من منهج العلماء الحديث، والاعتماد عليه، من أجل الوصول إلى الحقيقة النهائية، ومن هاتين المهمتين تظهر مهمة ثالثة وهي تسجيل هذه النصوص وإذاعتها بين الناس.

أما مع النصف الثاني للهجرة، وبداية القرن الثالث فقد شهد هذا العصر حركة ضخمة لجمع التراث وتدوينه وظهور جيل جديد مع ابن حبيب والسكري (من البصرة) وابن السكيت وثعلب (الكوفة) ومع هؤلاء ظهرت دواوين الشعر الجاهلي في صورتها النهائية إلى غاية أوائل القرن الرابع للهجري، وينتهي عصر الرواية والتدوين ويظهر البطل الأخير أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، الذي يعد عظمة وثيقة في التراث العربي القديم. [2]

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص 26-29

[2]- ينظر :المصدر نفسه، ص30-35.

أولية الشعر الجاهلي

إن تحديد مشكلة أولية الشعر الجاهلي، لا يسهل علينا أن نفصل فيها، ممّا أدى بالكثير من النقاد إلى الغوص في هذه القضية، حيث انطلق الكاتب من قول الجاحظ :

" أمّا الشعر حديث الميلاد، صغير السن". وأول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه هو امرئ القيس، والمهلهل بن أبي ربيعة، وإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرناه بغاية الاستظهار فمائتي عام، وهذا يعني أن العصر الجاهلي جاء قبل الإسلام بقرن ونصف، أو قرنين من الزمان، وفي هذه المرحلة شهدت الجزيرة العربية حدثا كبيرا أثر في حياتها الاجتماعية والأدبية، وهو حرب البسوس والتي كانت بين قبيلتي بكر وتغلب، ودامت أربعين سنة، وفي أغلب الظن أن هذه الحرب أعطت الأولية لنضج الشعر وهنا برز بعض الشعراء وعلى رأسهم : المهلهل بن أبي ربيعة، والقصيدة التي ظهرت في أثناء هذه الحرب كانت قصيدة مكتملة من الناحية الفنية. [1]

ورغم من أن القصيدة الجاهلية اكتملت فنيا، إلاّ أنها لم تصور البداية الأولية للشعر الجاهلي، وإنما سبقتها العديد من المحاولات، من بينها نظريتان أساسيتان :

- النظرية القديمة : ذهب إليها العلماء منذ عصر التدوين
- النظرية الحديثة : يذهب إليها بعض المستشرقين

فنظرية العرب القدماء بدأوا يصورون مقطوعات، يرتجلها الشاعر في المناسبات الطارئة،وبعد ذلك بدأوا يطيلون في مقطوعاتهم حتى تكاملت القصيدة العربية الطويلة المعروفة على يد المهلهل بن أبي ربيعة في حرب البسوس.

أما النظرية الحديثة فتذهب إلى أن الرجز هو الطور الأول الذي بدأ به الشاعر، وهو الوزن الشعري الذي كان عند العرب، واستمر الرجز حتى بعد ظهور الإسلام، واستقرار القصيدة فنيا.

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص39-41.

وانطلاقا من الرجز نشأت البحور العروضية الأخرى وهناك من يربط الرجز بسير الإبل وبالرغم من أن هذه النظريات إلاّ أنها لم تكن حلا لمشكلة أولية الشعر الجاهلي وإنما هي موضع شك واهتمام، لأن شيوع الرجز في القديم لا يعني سبقه للأوزان الأخرى.

وحسب رأي الكاتب أن الشعر بدأ بالغناء بحيث بدأ رجزا وكان بداية طبيعية مرتبطة بحياة البادية، التي كانت تقوم على حركة الدابة والتنقل، وبحيث كانوا يغنون للدابة، وهي تطرب لهذا الغنم، ومن هذا أطلقوا على هذا النوع من الغناء الحداء. حيث تتوالى نغماتها مع حركة سير الإبل ومايدفعنا بالقول أن العرب عرفوا الرجز منذ أن عرفوا الحداء.

وهذا يعني أن الرجز العربي القديم موغل في القدم.

ومن هنا أصبح الرجز فنا شعبيا يستعمل في جميع المجالات حتى بدأوا يستعملونه في القتال يتغنون به ليرفع من معنوياتهم، والأم تغني لصغارها والسقاة يتغنون وهم يمتحون الماء من الآبار، وكأنما أصبح الرجز لحن شعبي محبب إلى كل طوائف الشعب. [1]

ومن خلال قراءتنا لهذه الجزئية أردنا أن نعنونها ب : بدايات ظهور العربية الفصحى، الذي من الصعب حسب رأي الكاتب أن نحدد تاريخ نشوئها لأن القبائل الشماليين كان لها نفس التاريخ، بالإضافة أنه غامض ومجهول ولا توجد وثائق تثبت ذلك، حتى وأن وجدت فهي قليلة نذكر منها المماليك.

كمملكة الأنبار، مملكة تدمر، وبعد زمن طويل ظهرت بعض الإمارات كالخساسنة في الشام، والمناذر في الحيرة وكندة في الشمال هذا ما جعل نشوء الفصحى غامض فهي كباقي تاريخ الجزيرة العربية القديمة مما أدى إلى الكثير من الباحثين تتبع وتطور هذه اللغة من خلال النقوشالموجودة للوصول إلى حل هذه المشكلة اللغوية وهي التي تتصل بها العديد من القضايا.

وبأن هذه النقوش تعطينا صورة أولية لتطور الكتابة في أواخر القرن الثالث ميلادي إلى السادس ميلادي وتتمثل هذه النقوش في النقش الآرامي الذي عثر عليه في أم الجمال، ومن هنا نستطيع القول

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص41-49.

أنه بدأت ضوابط عديدة بين الحروف النمطية التي تتميز بالوضوح وهذا ما نجده في النقوش العربية التي كانت في زبدة لتكشف بعد ذلك خط حران ومعنى هذا أن الكتابة العربية بدأت تتكامل وتنضج.

لقد شهدت القبائل العربية في المرحلة الأولى لنضوج الشعر عوامل متعددة هيأت لظهور هذه الصورة الناضجة منها، توحد لغات القبائل واختفاء الفروق بينها، وكانت هذه من أسباب جعل الشعراء يصنعون الشعر، إلاّ أنه هناك الكثير من الباحثين المستشرقين اختلفوا حول هذه اللغة الموحدة فهناك من ذهب إلى القول أن هذه اللغة هي لهجة مركبة بين لهجات القبائل، وبأنه الاختلاف الذي كان بينهم اختلاف طفيف في هذه اللهجات في حين ذهب "جويدي" إلى أن هذه اللهجة ليست من قبيلة واحدة وإنما تشترك مع لهجات القبائل الأخرى وذهب "هارتمان" و"فولرز" لقول أن هذه اللغة هي لهجة الأعراب والشعراء هم الذين أدخلوا التغيرات عليها، أما بالنسبة لبروكمان فذهب إلى القول أنها من اللغات السامية.

أما بالنسبة لرأي كاتبنا فإن النظرية الإسلامية هي أدق نظرية حاولت حل هذه المسالة وهي وحدها تكفي للوصول للحقيقة التاريخية التي اتفق اللغويون بأن هذه اللهجة هي لهجة قريش التي نزل بها القرآن وأحسن سمعا، وهي اللغة التي نظم فيها الشعراء شعرهم في أواخر العصر الجاهلي وأطلق عليها العصر الجاهلي الأدبي. [1]

تطور الديانات في مكة :

بدأت مكة في عصرها الذهبي بدور بطولي في تاريخ الجزيرة العربية وأصبحت لهجتها تفرض نفسها على المجتمع الأدبي ومن أهم الأسباب :

وجود الكعبة بها حيث تعد المركز الديني الأول لهذه الجزيرة، فكانت المكان الذي تتجه نحوه القوافل إما القوافل التجارية أو قوافل مواسم الحج، وهذا أدى إلى تغلغل بعض الديانات كالمسيحية واليهودية في جزء من مناطق الجزيرة العربية مما جعل من القبائل ربط هذا التغلغل بالربا، فهاتان الديانتان

[1]– ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار الغريب، القاهرة، ط1 سنة 1981، ص50-62.

حسب رأيهم ارتبطت بالأفكار السياسية ومحاولات النفوذ الأجنبي استيطانهم فنجد النفوذ الفارسي في الحيرة والبيزنطي في الشام والحبشي في اليمن.

وما زاد الموقف حساسية أن العرب كانت ذات حضارة عريقة وثورة ضخمة وتملك تجارة عظيمة، وفي القرن الأول ميلادي بدأ هذا التغلغل بالظهور فالديانة اليهودية أصبحت تمد نفوذها إلى اليمن نتيجة اضطهاد الأباطرة الرومان لليهود، وفي القرن السادس بلغت اليهودية الحد الأقصى من جهة في حين بدأت محاولات المسيحية هي الأخرى تحاول فرض سيطرتها على المنطقة، وذلك من خلال تشكيل مجموعات من المبشرين المسيحيين نحو اليمن، وخلال قرن انتشرت المسيحية انتشارا واسعا وخاصة في نجران التي أصبحت في القرن الخامس مركزا لها.

وتحول هذا التغلغل الديني إلى تغلغل سياسي، حيث اندفع الجيش الحبشي للقضاء على مملكة "حمير" والقضاء على النفوذ اليهودي فزعت الوثنية العربية قرارا بعقيدتها نحو مكة، لتحمي مكة العرب الشماليين والجنوبيين على السواء وبهذا ازداد ارتفاع مكانة مكة ليزداد هذا الارتفاع ليصبح مكانا قديسا في عام الفيل عندما انهزم الجيش الحبشي وأصبحت مكة مطمح أنظارهم ومقعد آمالهم، تمثل رمز الحرية لجزيرة العربية واستقلالها.

كما أن مكة لم تكن مركز الدين فقط، وإنما أصبحت مركز الاقتصاد من الناحية التجارية، فالعرب منذ القدم كانت تعرف التجارة لأنه كانت هناك القوافل تجارية في مناطق الإنتاج، وفي القرن الخامس بدأ ما يسمى أزمة التجارة وتتحول من أيدي اليمنيين إلى أيدي الشماليين، وذلك بسبب توفر الظروف المناسبة في كعبة، وتوحد اللغة الذي جعل الشعراء لنظم شعرهم زمن خلال مواسم الحج ومرور القوافل أصبحت تقام مهرجانات أدبية وبهذا أصبحت هذه اللغة مسيطرة على المجتمع الأدبي في شمال جزيرة العرب كلها.[1]

ما بعد الأولية :

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص63-70.

شهدت القصيدة العربية في القرن الخامس ميلادي نضوجا كاملا وذلك لتوفر الظروف المعينة لها، بحيث مرت بمرحلتين فتيتين :

مرحلة النضج الطبيعي : ظهرت مع امرئ القيس وطرفة وتميزت القصيدة بعدم التكلف والتصنع الفني، وكان تعبيرها مباشرا فالشاعر يكتسب ما يحسه من مشاعر، ونقلها دون بذل جهد أو معاناة فهو ينقل مظاهر الطبيعة ويعبر عنها ومن أهم خصائصها نجد :

التشبيه وهو الركن الأساسي في شعر هذع المرحلة لأنها تعد المرحلة الأولى من التصوير الفني وصناعة الصورة الفنية، ومن أشهر الشعراء الذين اعتمدوا على التشبيه في شعرهم نجد امرئ القيس الذي كان التشبيه بارزا في جل قصائده فيقول :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة * ترائبها مصقولة كالسجنجل

وجيد كجيد الرتم ليس بفاحش * إذا هي نصّته ولا يمطّل

ومن خلال البيتين نرى بأن التشبيهات المستعملة كلها مستوحاة من الطبيعة الصحراوية والأمر نفسه نجده عند طرفة فهو كامرئ القيس يستمد التشبيهات في قصائده مأخوذة من البيئة الصحراوية التي يعيش فيها. [1]

فإن الشعر في هذه المرحلة تميز الارتجال والنظم على الفطرة دون العناية بتركيب الجملة.

كما نرى أن الشعر في هذه المرحلة الأولية المبكرة فإنه رغم اكتمال الشعر ونضوجه وظهور العديد من الشعراء إلا أن هذه المرحلة تحمل آثارا ورواسي ونلتمس هذه الرواسب في الزحافات في قصائد هذه المرحلة، ويظهر في قول امرئ القيس :

كأن تبيرا في عرانين وبله *كبير أناس في بجاد مزمّل

هذا البيت يشهد زحاف في كلمة مزمل فهي ليست صفة ل-بجاد- حتى تأتي مجرورة فحركتها في الأصل ضمة فهي صفة لكلمة "كبير" بالإضافة إلى الزحافات التي تميزت بها المرحلة الأولى نجد

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار الغريب، القاهرة، ط1 سنة 1981، ص73-78.

كذلك الخروج على الوزن العروضي والتداخل بين الأوزان، وهذا ما يظهر قصيدة عبيد بن الأبرص في مطلع قصيدته :

أقفر من أهله ملحوب * فالقطبيات فالذنوب

وبهذا ظلت المرحلة الأولى هي الصورة العامة التي استقرت عليها القصيدة الجاهلية في مرحلة النضج الطبيعي وهذه الصورة طلت تفرض نفسها على القصيدة الجاهلية طيلة العصر الجاهلي. [1]

مرحلة الصنعة : تعد المرحلة الأولية التي تطورت فيها القصيدة العربية القديمة في صورتها البسيطة ظهر ما يسمى بالمدرسة الفنية التي أصطلح عليها بمدرسة الصنعة فلقد استطاع شعراء هذه المدرسة أن يغيروا طريق الشعر الجاهلي من جديد، فالشاعر بدأ بعيد النظر في إنتاجه مرة بعد مرة حتى يستقيم شعرهم، بالنسبة لهم العمل الفني ليس ارتجالا ولا تغيرا مباشرا عن النفس.

حيث بدأت هذه المدرسة مع أوس بن حجر والنابغة الذبياني، لكن الروايات العربية القديمة تقول غير ذلك أن هذه المدرسة بدأت قبل ذلك مع كفيل الغنوى وكان طفيل أستاذ لأوس وكان يلقب "المحبّر" ولقد شهد هذا العصر مدرسة الطبع، وعصر الداحس والغبراء تميزا بتطور مدرسة الصنعة وتعد الحرب بينهما نقطة تحول في تاريخ القصيدة، فالشاعر في هذه المدرسة ينظم قصيدته ثم يعيد النظر فيها حتى يستقيم مع مذهبه الفني فمثلا زهير كان يكتب القصيدة ويتفرغ لها عاما كاملا وهو ينقح ويهذب ألفاظها حتى أطلق عليها بالحوليات، فكاتبنا عدد الكثير من الأقاويل حول تسمية هذه الحوليات كقول الجاحظ وابن قتيبة، وابن جني وعلى هذه الشاكلة ظل شعراء الصنعة أو مدرسة عبيد الشعر يعيرون في العمل الفتي ويبذلون الكثير من الجهد والعناء حتى تخرج القصيدة في صورتها، ومن أهم العناصر التي كان يرتكز عليها الشعراء نجد : الألوان البلاغية العميقة كالتشبيه والتشبيه التمثيلي والاستعارة التي نجدها انتشرت عند شعراء مدرسة الصنعة فهي اللون البارز في لوحته. [2]

نجد زهير في قصائده الاستعارات ازدحاما شديدا وتحشدا كبيرا وهذا ما يظهر في قوله .

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص78-83.

[2]- ينظر :المصدر نفسه، ص84-87.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجّم

ويقول أيضا :

رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا * غمارا تفرّى بالسلاح وبالدم

نلاحظ أن العمل الفني عند لشعراء لم يكن الشاعر يعبر عن نفسه كما كان الشاعر الأولي وإنما يستعمل تراكيب معقدة، يستنفد الشاعر الكثير من الجهد والعناء فشعراء هذا العصر شغلهم الشاغل هو العناية بالصناعة والحرص على تجويده، والحرص على التفاصيل والجزيئات لتكتمل صورهم المعبرة وألوانها المميزة.[1]

إن شعراء مدرسة الطبع كانوا يستعملون التشبيه البسيط الذي كان يستمد من البيئة الصحراوية ليتحول عند شعراء المدرسة الصنعة إلى التشبيه المركب الذي ساعدهم على رسم لوحاتهم الفنية بتفاصيل وجزئيات لإظهار المهارات والقدرات الفنية، فنجد الشاعر لبيد في أواخر العصر الجاهلي أنه وصل إلى مستوى عالي ولم يصل أي شاعر جاهلي أخر وهذا حسب رأي الكاتب، ويظهر ذلك في معلقته كيف كان يستخدم التشبيه التمثيلي ليرسم الحياة الصحراوية وما يدور بين الصيادين والحيوان من أجل البقاء على قيد الحياة، وكانت لوحاته تفيض بالحركة والحياة في البيتين يصور لنا الصراع الدائم بين الإنسان والحيوان.

فلحقت واعتكرت بها مدريّة... كالشمهرية حدّها وتمامها

لتذودهن وأيقنت إن لم تذد... أن قد أحمّ على الحتوف حمامها

وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول مدرسة الصنعة الجاهلية نهضت بالقصيدة العربية نهضة رائعة والتي حققت لها الكثير من التقاليد الفنية وغيرت مجرى الشعر الطبيعي لذى كان يتدفق بالبساطة والطبيعة.[2]

"مقدمة القصيدة الجاهلية محاولة جديدة لتفسيرها"

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص87-90.

[2]- المصدر نفسه، ص98-103.

يتحدث الكاتب في هذه الجزئية عن البيئة الصحراوية وأن الجزء الكبير منها هي بيئة صحراوية فرضت نفسها على طبيعة الحياة الاجتماعية والنشاط البشري، فهي تتميز بالضغط العالي والمطر القليل وحرارة مرتفعة ورياح موسمية جنوبية غربية فهذه المظاهر أثرت في الحس اللغوي عندهم ومن خلال هذه البيئة القاسية أصبح وصف المطر يعبر عن الارتباط العاطفي الذي يمثل الرحمة والسكينة والاستقرار كما أصبح المطر أبرز موضوعات الشعر الجاهلي.

فالمطر يعتبر عاملا أساسيا في نشاطهم الحيوي، حيث رجح الباحثين تدهور الحضارات القديمة سببه الجفاف، ومن هنا أصبحت الحركة هي القاعدة التي يقوم عليها البدو الرحل وهذا لاحظه جل الدارسون وبهذا كان انشغال العرب يرتكز على الرعي والتجارة والصيد في حين تراجعت الزراعة و الصناعة و كان الصيد و الرعي سببا من أسباب العيش و ظهر ما يسمى بفكرة "الحمى" حيث سيطرت هذه الفكرة على المجتمع البدوي وأصبح لكل قبيلة حمى خاص بها.[1]

الحياة في القبيلة كانت بسيطة و قليلة الأعباء و التكاليف فهي مرتبطة بالطبيعة، ويعتمدون على الرعي والصيد والغزو، فسكان البادية القديمة كانت أوقات فراغهم كثيرة و طويلة خصوصا في أيام الربيع لم تكن لديهم مشقة لتوفير لقمة العيش لهم و لدوابهم هذا ما يقتضي أن يتوفر البديل لملأ هذا الفراغ و الشعور بالضياع في هذه الصحراء حيث حاولوا إيجاد حل لهذه المشكلات والتي تستند على ثلاث اتجاهات : الخروج الى الصحراء لرحلة أو صيد، الالتقاء بالأصدقاء و شرب الخمر والسعي وراء الحب و الغزل هذا ما أكدته الكثير من النصوص الجاهلية.

فالحياة في المجتمع الجاهلي كانت تقوم على قاعدة متحركة تنتجع من مواطن الخصب الذي يبنى على الرعي من أنعام الأراضي، فالعبيد هم الذين يهتمون بأمورها ومعهم الفتيان و الفتيات وأبناء القبيلة و بناتها ومن هنا تأخذ خيوط الحب تتألف بين القلوب و بهذا تمضي الأيام و تدور الفصول لتجف المراعي وتضطر القبيلة الى الرحيل، و تبدأ ذكريات الحب والديار طول الطريق وعلى هذه الصورة كانت البداية لهذه الظاهرة في العصر الجاهلي ، استلهم الشاعر المقدمة الطللية التي ضاعت، وهذا ما جعل

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي،ص107-109

الكاتب يحاول البحث عن هذه الأولية فيرجع أولياتها من أواخر القرن الخامس ميلادي الى أوائل القرن السادس ميلادي.[1]

في تلك الفترة عاصرت حرب البسوس والتي تميزت بالنضج واكتمال القصائد ففي هذه الفترة من التاريخ وصلت القصيدة العربية بتقاليدها ومقوماتها الطللية التي تبنوها شعراء ذلك العصر، وأول شاعر تطرق إليها هو امرئ القيس في قوله :

عوجا الطل المحيللأننا ... نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ليأتي بعد ذلك كعب وعنتر اللذان عاصرا عصر داحس وغبراء ليؤكدان ويصرحان أن بعض شعرهما تقليد، وأن القدماء لم يتركوا لهما شيء جديد، وبهذا يتبادر إلى ذهن كاتبنا السؤال التالي :

ما الصورة التقليدية الثابتة التي استقرت عليها القصيدة العربية ؟

لقد عرفت القصيدة الجاهلية في أثر الأحيان بمنهج ثابت يبدأ من المقدمة الطللية ليذهب إلى وصف الرحلة، ثم لينتقل إلى موضوعه الأساسي وقد ظل هذا المنهج يتناولونه في جميع الموضوعات ما عدا الرثاء، فهو الذي خرج عن هذا التقليد، كما أن المجتمع القبلي الجاهلي كان يقوم على العقد الجماعي فرض على الشاعر أن يكون لسانه لسان القبيلة يتحدث لاسمها وشعره يخدم قضاياه السياسية والاجتماعية على حدّ سواء، وبهذا أصبحت القصيدة الجاهلية تنقسم إلى قسمين أساسيين :

- قسم يضع فيه المقدمات، ووصف الرحلة والصحراء.
- قسم آخر يتحدث عن القبيلة والوفاء ليعرض في المدح والاعتراض أمثال النابغة والأعشى وزهير.

ويتضح أن الشعراء كانوا يفضلون القسم الذاتي للقصيدة الجاهلية لأنه من خلالها يستطيع أن يخفف من زحمة التزامات القبيلة التي يفرضها هذا العقد ومن هنا يتبين حرص الشعراء على المقدمات الطللية يعبرون عن دوافعهم النفسية وهواهم، وأن هذه المقدمة نتجت عن الوضع الطبيعي للقبيلة.

[1]- المصدر نفسه،ص110-113

فالمقدمة الطللية كانت أكثر شيوعا وانتشارا كونها أقرب إلى نفوس الشعراء الجاهليين، وهذا لا يعني وجود مقدمات أخرى، فهناك مقدمة غزلية التي نراها في مقدمة الأعشى، والمقدمة الخمرية التي نلتمسها عند عمرو بن كلثوم وهناك مقدمات فروسية، وهذا ما نجده عند عمرو بن الود، وحاتم الطائي وغيرهما...[1]

مقدمة في القصيدة الجاهلية

دراسات موضوعية وفنية

يتحدث الكاتب عن المقدمة الطللية وبأنها مقدمة وجدت هوى شديد في نفوس الشعراء الجاهليين، فهي تعبر عن الحياة البدوية، وظاهرة الحركة، بحيث بدأت المقدمة بداية طبيعية عند الشعراء، مرحلة فنية لتتحول بعد ذلك إلى مقدمة تقليدية عند شعراء المرحلة الثانية التي عاصرت حرب داحس والغبراء.

استطاع شعراء المرحلة الفنية أن يرسموا دعائم ومعالم المقدمة الطللية لتصبح منهجا ثابتا في طريق الشعر العربي، يهتدي بها الشعراء الآخرين لتحقيق الصورة الكلاسيكية وبأن امرئ القيس قد ابتكر هذه الطائفة وهو من مهّد لمن بعده، وهكذا بقيت المقدمة الطللية في المرحلة الأولى صورة بسيطة غير معقدة، فهي تعبير الشاعر عن أحاسيسه.

ولقد اقترنت المقدمة بظهور الرفيقين شاعر ومن يوجه إليه الخطاب، حيث اختلفت التفاسير فهناك من ذهب بالقول أن العرب تخالط الواحد بالاثنين، ومن قال الألف للفعل وليست للتثنية، فالشاعر في هذه المقدمة يعيش المأساة الحزينة، لذلك يقف ليبكي مع رفيقه ويستعين بخياله في ذكريات الماضي، وفي ظل هذا الفراغ الداخلي والخارجي في الأطلال. [2]

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص114-120.

[2]-ينظر :المصدر، ص123-127.

أشهر المقدمات الطللية

تعد أشهر المقدمات لهذه المرحلة لأشهر شعرائها هو امرئ القيس وأشهر قصائده المعلقة، فقد استطاع الشاعر أن يرسم المنهج العام للمقدمة الطللية في الشعر العربي، ففي مقدمته يذكر ويستذكر مع صاحبه الحبيبة ويبكي ويستبكي ويشكي ويشتكي في قوله :

قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل ... سقط اللوى بين الدخول فحومل

فالشاعر هنا ينكر يوم الرحيل، يوم رحلت صاحبته عن هذه الديار، ويذرف الدموع حزنا على فراقها، لعلّ هذه الدموع تشفي نفسه من الذكريات المكبوتة.

فالشاعر امرئ القيس من خلال مقدمته هذه استطاع أن يرسم لنا بطاقة فنية، يصور لنا من خلالها التجربة التي مر بها، كما أحسها متقيدا بعناصر القصيدة الأولية.

كما تعبر هذه المقدمة عن مقومات العمل الفني، فترسم لن ملامح شخصياته.

وفي نهاية العصر الجاهلي شهدت تلك الفترة حدثا عظيما وهي الحرب بين عبس وذبيان، بدأت المرحة الثانية من العصر الجاهلي وهي مرحلة شهدت تطور مدرسة الصنعة، ومن أشهر شعرائها زهير بن أبي سلمى الذي تفنن في تقاليد هذه المدرسة، ولينهض بها نهضة رائعة.

مما جعل المقدمة الطللية هي الأخرى تتطور وتتحول إله مقدمة تقليدية مما يطلق عليها لحن مميز للقصيدة الجاهلية، فأصحاب مدرسة الصنعة طوّروا في المقدمة، ولكن لم يتمردوا على التقاليد الثابتة، وإنما انتقلوا بها من التعبير المباشر إلى تطابق الروية والأناة والتمهل، مع هذا التطور الفني الذي أصاب الشعر الجاهلي.[1]

تطور صناعة المقدمة الطللية، وأصبحت تصنع مقدمة بدقة وإحكام شديد، كالعناية بالتفاصيل والجزئيات والحرص على استكمال عناصرها وألوانها، وبراعة في توليد المعتني، والبحث خلف الأفكار العميقة، ومن أهم مقدمات هذه المرحلة مقدمة زهير، الذي استطاع أن يحقق تقاليد هذه المقدمات، فهو يرسم منظر الأطلال في صمتها، وصاحبة الأطلال في رحلتها والتي نجدها في قصيدة "أم أوفى".

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص128-130.

أمّا منظر السكون فنجد زهير يكتبها في ذكرياته القديمة، فهو حريص على استكمال صوره التي يرسمها والقدرة على استخدام ألوانه ليخرج ألوان جديدة، فهو يعرف كيف يستخدم هذا اللون أو ذاك، ويقف متأنيا متمهلا في رسم الجزئيات والتفاصيل، كما نلتمس في قصائده التوزيع المسرحي الدقيق مشهد الأطلال الذي يظهر فيه البطل، ومشهد الرحلة التي تظهر فيها البطلة.

فزهير تلقى المقدمة الطللية من شعراء المرحلة الفنية الأولى وجدّد من عناصرها القديمة ليضيف إليها عناصر جديدة تقوم عليها مدرسة الفنية وتقاليد مذهبية، كما راح يتخلص من بعض العناصر الموروثة كالبكاء على الأطلال واختفاء الرفيقان ليحل محله رفيق واحد وظهور المشاعر المسرحية.[1]

ففي هذه المرحلة كانت تقاليد القصيدة العربية القديمة، قد استقرت ومقومات العمل الفني قد اتضحت، نجد لبيد هو الآخر كزهير يرسم مقدمته في نفس المنظرين منظر الأطلال في صمتها، ومنظر صاحبة الأطلال في رحلتها، فالسكون يظهر عنده في الديار، أما الحركة فيرسمها لبنات الصحراء، ويتذكر منهم صاحبة "نوار" التي نأت بها رحلة بعيدة في أعماق الصحراء، فمن الواضح أن مقدمة زهير ولبيد متشابهتان إلى حدّ بعيد.

إلا أنّنا التمسنا بعض الغرابة في شعره في مقدمته، وحتى في خاتمته نجد الشاعر لبيد رجلا عاقلا واقعيا يحكم عقله بقلبه، ويستند بالحجّة والدليل فلبيد لا يعبّر عن مشاعر فراق الحبيبة، وإنما أخذها تقليد لما قبله، فهو جدير في صياغة الموضوعات، ورسم طبيعته الصحراوية.[2]

صورة أخرى من المقدمات الجاهلية : "اتجاهات ومثل"

تميز الشعر الجاهلي بالمقدمة الطللية والسيطرة عليه، لكن هذا لا يعني وجود صورة أخرى من المقدمات، وهي تختلف في اتجاهاتها، ومن بينها نجد : صورة أخرى أكثر انتشارا وقريبة إلى المقدمة الطللية هي المقدمات الغزلية التي تتحدث عن الحبيبة وتحمل موضوعين.

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي،ص131-137.

[2]- ينظر :المصدر نفسه، ص138-144.

- وصف الحبيبة حسيا ومعنويا.
- تصوير عواطف الشاعر ومشاعره لها.

حيث يبدأ الشاعر في مقدمته بالحديث عن رحيل صاحبته التي تترك الحزن والأسى والحنين، وهذا ما نجده في مقدمة الأعشى اللامية المشهورة، والتي تعد من أشهر المقدمات الغزلية، وكذلك نجد الشنفرى في مقدمته التائية هي الأخرى من روائع المقدمات الغزلية، وتبدأ المقدمتان بالكلام عن رحيل الحبيبة.

فمقدمة الشنفرى تعد من أروع ما وصل إلينا من مقدمات الشعر الجاهلي الغزلي في وصف جمال المرأة، فيبدأ الشاعر بالكلام عن الرحيل والوداع لصاحبته "أميمة" التي كان سفرها مفاجئ، لذلك نجد الشنفرى يقول :

ألا أمّ عمرو أجمعت فاستقلّت ... وما ودعت جيرانها إذ تولت

وقد سبقتنا أمّ عمرو بأمرها ... وكانت بأعناق المطيّ أظلّت

فإن الشنفرى في مقدمته هذه يرسم لنا أجمل مقدمة ويرتكز فيها على ثلاثة أدوار، فتحدث عن صاحبته مثالية مع نفسها، مع زوجها صديقاتها، لينتقل إلى وصف أهم الصفات الموجودة لدى حبيبته، وتعد مقدمة الشنفرى من أحسن ما قيل في خفر النساء وعفتهن.[1]

المقدمات الخمرية :

فمن المعروف أن الحياة الجاهلية كان يملأها الفراغ، فحاولوا ملأ فراغهم في المجالس الخمرية، ومنه ظهرت المقدمات الخمرية، التي تعد ضرب من ضروب اللهو، ففي هذه المقدمات يختفي منظر الوداع التقليدي، ويحتل مكانه مناظر ومجالس الشراب، وتتميز هذه المقدمات الخمرية بالتفاؤل والحياة، وهذا ما نجده في معلقة طرفة الذي تحدث فسي قصيدته عن الخمر والحب والفروسية فيقول :

فذرني أرويّ هامتي في حياتها ... مخافة شرب في الحياة مصرّد

كريم يروّي نفسه في حياته ... ستعلم إن متنا غدا أيّنا الصّدى

[1] ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص147-154.

فطرفة من خلال قصائده نجده في صراع مع نفسه ويحاول الاستمتاع بالحياة لحل مشكلته النفسية التي يعاني منها، وهي الاحساس بالضياع والمصير المجهول.

في حين نجد عمرو بن كلثوم في مقدمته المشهورة، والتي تعد أقوى المقدمات الخمرية التي يصور فيها جوانب المتعة المختلفة، ويستهل قصيدته بتدفق معاني الحياة المتفتحة المتفائلة ويتضح ذلك في قوله :

ألا هيّ بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقى خمورا الأندرينا

مشعشعة كأن الحصّ فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا

فالشاعر هنا يعبر عن متعته في الحياة، فالخمرة بالنسبة إليه هي جانب واحد من الحياة، فيريد معها المرأة ولا يريد أن يحبس نفسه داخل متعة واحدة.[1]

المقدمات الفروسية :

إن مفهوم الفروسية استقر في العصر الجاهلي على الشجاعة، والبطولة لينتقل من جانب إلى جانب آخر من الجوانب وهو الجانب الحسب لينتقل إلى المعنوي كالكرم والنجدة والمروءة والحماية.

فالمقدمة الجاهلية التي تبدأ بالفروسية هي الأخرى تتحدث عن المرأة التي تكون حريصة على صاحبها الفارس، وتخاف عليه من عواقب مغامراته ومن أهم الصور العامة لهذه المقدمات صورة السيدة المحبة لصاحبها التي تمثل كل صفات الأنوثة المحبوبة، أمام الصاحب الذي يتصف بصفات الرجولة.

فهذه الصورة من المقدمات في قصائد الشعراء الفرسان حيث يبدأون بالحديث عن حواء المحبة لأنها تظهر لهم فروسيتهم، ومن أهم شعرائها عمروبن الود وحاتم الطائي، اللذان مثلان الفروسية في مظهرها الحسي والمعنوي، حيث يقول حاتم مخاطبا لزوجته فيقول :

أماويّ قد طال التجنب والهجر ... وقد عذرتني في طلابكم الغدر

أماويّ إن المال غاد ورائح ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر

ما نجده يتجلى عند عروة بن الورد في إقناع صاحبته والمغامرة في الحياة في قوله :

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص155-159.

أقلّ على اللوم ياابنة منذر ... ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

الشيب والشباب :

تتحدث مقدمة الشيب والشباب عن الماضي، والذكريات التي عاشها الشاعر في شبابه، وحسب رأي الرواة القدماء، أول من بكى على شبابه هو عمرو بن قميئة إلا أن كاتبنا لا يطمئن لهذا التصريح، لأن ابن قميئة كان رفيق امرئ القيس، وأنه هناك شاعرا آخر زامن عمرو بن قميئة في الحديث عن الشيب والمشيب، التي تعد من أروع الأمثلة التي تتحدث عن الشيب والمشيب.[1]

الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية :

كان المجتمع الجاهلي يقوم على العصبية القبلية والنظام العقدي، والشاعر كان لديه منزلة رفيعة في هذا المجتمع، وكانت منزلته كمنزلة الفارس، فالفارس يحارب بسيفه، والشاعر يحارب بلسانه، ونتيجة هذا العقد الاجتماعي، بين الشاعر وقبيلته نتج عقد فني يفرض عليه التحدث عن قبيلته ولسانه لسان لها وشعره صحيفة لها في مقابل ذلك يمنح للشاعر لقب شاعر القبيلة.

فهذا العقد الفني يحتم على الشاعر أن يعبر عن القبيلة عوضا عن نفسه وأصبح ضمير "نحن" بدلا من "أنا"، فشاعر القبيلة يسير دائما ركابها ويدافع عنها ويحمسها للقتال ويسجل انتصاراتها، ويرثي موتاها، ويهجي أعدائها، وهكذا نلاحظ أن شاعر القبيلة كان مشغولا بقبيلته وحريصا على أن يجعل مكانتها هي الأولى في أعماله الفنية، ولعلّ أقوى من مثّل هذه النزعة هو عمرو بن كلثوم، الذي كان يتحدث عن قومه ومفاخرهم، وينسى الحديث عن نفسه.

فالشاعر عمرو بن كلثوم شاعر تغلب والناطق بلسانها، كما كان يوجد الشاعر القبلي، هناك طائفة أخرى من الشعراء يتحدثون عن شخصياتهم الفردية بدون التمرد على نظام القبيلة، بحيث آمنت هذه الطائفة ان الفن أولا للفن وبأن لوحاتهم وريشتهم خاصة بهم، ولعل أشهر الأمثلة لهذه الطائفة من الشعراء الذين يطلق عليهم أصحاب المذهب الفردي امرئ القيس الذي يتحدث في مقدمته

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص159-166.

عن شخصيته الأرستقراطية التي تنحصر في الحب والصيد حيث تعد المرأة همّه في الحياة، فمعلقة امرئ القيس هي سلسلة من الذكريات الجميلة التي عاشها وهو شاب.[1]

وفي ظل هاتين الطائفتين ظهرت طائفتين أخريان، فإحداهما بالغت بالتمسك بالشخصية القبلية والأخرى الاعتداد بالشخصية الفردية.

فأما الطائفة التي بالغت في فهم الشخصية الفردية هي طائفة الشعراء الصعاليك، وهم المتمردون عن النظام القبلي.

ونعني بالصعاليك هم رجال فقراء ضاقت بهم سبل العيش في ظل قبائلهم فرحلوا إلى الصحراء ينهبون ويسلبون، ويقطعون الطريق عن القوافل التجارية حيث انضمت إليهم جماعات من خلعاء القبائل، وطردتهم من حماها وأخذت منهم الجنسية القبلية، وأساس هذه الحركة الصعاليك، هي المبالغة والاعتزاز ومقدرة الفرد في وجه المجتمع، ليتحول إلى درجة التمرد والثورة.

ومن هنا تنقطع كل الصلة بالشاعر وقبيلته، لقد تميز شعر الصعاليك بنزعتين :

- نزعة فردية وممعنة في إحساسها بالفردية.
- نزعة جماعية ممعنة في إحساسها بالجماعة.[2]

نحو نظرية جديدة : تقسيم جديد للعصر الجاهلي

يتحدث الكاتب عن التقسيم الجديد للعصر الجاهلي الذي يبدأ من أول كتاب في تاريخ الأدب العربي ألا وهو "تاريخ آداب اللغة العربية" الذي قسم فيه لأول مرة تاريخ هذا الأدب إلى خمسة عصور : العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، عصر الدولة الأموية، عصر الدولة العباسية ثم العصر الحديث، وظل هذا التقسيم يفرض نفسه على الباحثين العرب مدة طويلة، وظل العصر الجاهلي الوحدة التاريخية البارزة التي جعلت الباحثين يختلفون عن دراسة منهجهم، وقد اختلف الرواة حول تصنيف النصوص، فهناك من ردّ هذه النصوص وصنفها من ناحية الجودة أمثال : "حماد الراوية" وهناك من صنفها على أساس الذوق

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص173-179.

[2]- ينظر :المصدر نفسه،ص180-188.

"كالمظل الضبي" في مفضلياته، في حين ذهب أبو زيد القرشي إلى تصنيف الشعر على أساس فني وغلى جانب هؤلاء نجد مجموعة من النقاد يصنفون الشعر مثل : ابن سلام الجمحي الذي صنف الشعر على أساسين : أساس فني وأساس بيئي.

ومن ناحية شعراء البادية وشعراء القرى، معتمدا في ذلك على سلم الفحولة الفنية، في حين نرى أن ابن قتيبة اعتمد في توزيعه على أساس الزمن.

وحسب رأي كاتبنا فإن التصنيف الصحيح ينقسم إلى ثلاثة عصور أدبية وهي : حرب البسوس، حرب داحس والغبراء، يوم ذي قار. وهي تمثل معالم بارزة في تاريخ هذا العصر، إلاّ أن هذه النظرية توجد فيها صعوبات كثيرة نذكر منها : صعوبة تحديد تاريخ حياة الشعراء فلا توجد شهادات الميلاد، ولا شهادات الوفاة وإنما ربط حياتهم بالأحداث التاريخية.[1]

لقد كانت حياة العرب تقوم على الحرب والدماء، وبذلك ظهرت فكرة "شريعة الثأر" التي سيطرت على على وجدان الشعب في العصر الجاهلي، وظل العرب على هذه الشريعة في صراع لا يهدأ ولا ينتهي.

ومن أهم الحروب التي شهدتها الجزيرة العربية في هذا العصر هي حرب داحس والغبراء والتي دامت أربعين سنة، وتمثل هذه بداية تكامل القصيدة العربية، كما شهدت حرب البسوس ازدهار مدرسة الصنعة وفي نهاية العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي شهدت العرب حربا وهي "يوم ذي قار" والتي سجلوا فيها نصرا على الامبراطورية الفارسية، حيث انتقلت القصيدة من عصر أدبي إلى عصر آخر وهو عصر قصر القصيدة الكلاسيكية الإسلامية الجديدة، التي شهدها شعراء القرن الأول الهجري.[2]

[1]- ينظر : يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، ص193-194.

[2]- ينظر : المصدر نفسه، ص195-196.

الفصل الثاني

دراسة الكتاب

الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين

وصل إلينا الشعر الجاهلي عن طريق الرواة الذين حفظوا الشعر من الشعراء، فيحفظها الراوي ويذيعها على الناس وهكذا إلى أن جاء عصر التدوين، حيث ظهرت جماعة سموا الرواة من أشهرهم حمادة بن سلمة، خلف الأحمر، ولم يعرف الشعر الجاهلي التدوين إلا بعد عهد من الزمن، فقد تداولوه وتناقلوه عبر الرواية وهم قد عرفوا الكتابة كما تفيد الأدلة ولكنهم لم يستخدموها لتخليد شعرهم.

حيث يرى شوقي ضيف أنه ليس هناك أي دليل يثبت أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم وأنهم بعض قطع أو قصائد ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال القادمة ومن أهم وسائلها هي الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم.[1] وهذا ما يؤكده الكاتب سامي يوسف أبو زيد في كتابه الأدب الجاهلي، أن الشعر الجاهلي نقل مشافهة حيث ميز رواية الشعر الجاهلي بثلاث مراحل، هي مراحل هي مرحلة الرواية الشفوية، والمرحلة الثانية هي مرحلة التجميع والمرحلة الثالثة مرحلة التدوين.[2]

ومنه نستخلص أن الرأي السائد أن رواية الشعر الجاهلي ظلت منشدة إلى حقيقة تاريخية وهي نظرية النظم الشفوي، فقد ظل الشعر ينتقل بين الشعراء والحفظة عن طريق الرواية الشفوية دون أن يدون، ولقد ارتبطت توثيق الشعر الجاهلي بالقرآن الكريم، فعند تدوين القرآن الكريم انعكس على الشعر.

وبالإضافة إلى ما سبق نجد الدكتور قيس كاظم الجنابي يقول بأن العرب في الجاهلية اهتموا برواية الشعر وتداوله لأنه يعبر عن إحساسهم ويصور أحداثهم ويرسم لهم المعاني، فهو سجلهم الذي حفظ مآثرهم وأيامهم وما كان لهم من عادات وتقاليد.

وثمة حرص واضح عند العرب لحفظ الشعر لما فيه من معلومات تخص تاريخهم وما وقع فيه من أحداث وساعدهم على ذلك سلامة الذاكرة وسرعة الحفظ حتى بعد ظهور الإسلام، فلا نقرأ قصة من قصص

[1]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط6-1974، ص140.

[2]- سامي يوسف أبو زيد، الأدب الجاهلي، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص44-45.

أيام العرب إلاّ ونجد فيها شعرا ينسب إلى أحد الأبطال. فكان حفظ الشعر تلك الأيام في ذاكرة الأجيال، ثم أقدم المدون فدونها فوصلت إلى أيام التدوين.[1]

كما نجد الكاتب ناصر الدين الأسد يتفق مع يوسف خليق بأن الكتابة كانت موجودة في العصر الجاهلي إلا أنه تختلف معه في قضية تدوين تلك الأشعار في نفس العصر فناصر الدين يؤكد على تدوين الشعر في نفس الزمن وذلك من خلال قوله "أمامنا إذن في هذه النصوص والروايات، شعر جاهلي وأخبار الجاهلية مدونة كلها في كتب وأسفار ودواوين من الجاهلية نفسها".

فحين نجد المستشرف بلاشير* يقلل من شأن التدوين قبل الإسلام ومن حجم ما دون آنذاك، مرجحا دور الرواية الشفوية في سيرورة الشعر الجاهلي وانتشاره فيقول :

"لاشك في أن بعض الرواة في بعض المراكز الحضرية قد دونوا كتابة بعض القصائد العامة، ولكن ذلك يحوزه الدليل، حتى ولو سلمنا بعده وقوع ذلك فإن التدوين لم يشمل إلا جزءا من آثار الشعراء الحضريين، أما البقية فقد سارت في الصحراء عن طريق الرواية الشفوية. وخلاصة القول فإن الرواية الشفوية وحدها تؤلف الطريق الأساسية لنشر الآثار الشعرية، منذ اللحظة التي قذف فيها الشاعر وروايته تلك الأثار في خضم الجماهير".[2]

أولية الشعر الجاهلي :

يدل العصر الجاهلي على الأطوار التاريخية التي سبقت الإسلام، لذلك اعتبر أنه حديث الميلاد، وصغير السن وأول من سهل الطريق إليه هو المهلهل بن أبي ربيعة وامرئ القيس، وحسب رأي الجاحظ فقدّر بخمسين ومائة عام قبل الإسلام، وهذا ما يطلق عليه بالجاهلية الأولى، وتميزت هذه الفترة بوضوح تاريخ العرب في العصر الجاهلي.[3]

[1]- قيس كاظم الجنابي-أبو الشعر- دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007، ص37-38.

*-بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق، 1973، ج1، ص120.

[2]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1956، ص162.

[3]- الجاحظ، الحيوان، طبعة الحلبي، د.ت.د.ط، ج1، ص74.

حيث نجد مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب يوافق رأي الجاحظ ويرجع أولية الشعر الجاهلي إلى مائتي عام قبل الهجرة.[1]

ومن خلال الرأيين يتضح أن الشعر الجاهلي كانت بدايته من مائتي وخمسين عام قبل الإسلام وهي فترة حيث يمكن القول أن الشعر الجاهلي وصل إلى مرحلة النضوج سواء كان مشافهة أو مدوّن

كما نجد الكاتب محمد قدور تاج في كتابه الأدب في ميزان الاستشراف أن العصر الجاهلي من حيث المدّة الزمنية هو الفترة التي سبقت الإسلام منذ أقدم الازمنة وينتهي بمجرد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة.[2]

ومنه نستخلص أن العصر الجاهلي هو أقدم العصور الأدبية، أو عصر ما قبل الإسلام.

بدايات تشكل القصيدة العربية :

ترى النظرية العربية الحديثة إلى أن الشعر الجاهلي بدأ في صور مقطوعات قصيرة أو أبيات قليلة العدد يرتجلها الشاعر في المناسبات الطارئة يعبر عن انطباعات سريعة مؤقتة ثم أخذوا يطيلون فيها حتى تكاملت لهم القصيدة العربية الطويلة في صورتها المعروفة على يد المهلهل في حرب البسوس وهي نظرية سجلها ابن سلام في مقدمته حيث يقول : لم يكن العرب الأوائل العرب أن الشعر إلا أبيات يقولها الرجل في حادثة وإنما قصدت القصائد، وطوّل الشعر على عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف.[3]

لقد جاء ابن قشيبة فتبعه فيها قال في مقدمته : "أنه ينقل عنه" لم يكن لأوائل الشعراء إلا أبيات قليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة.[4]

وفي المصادر العربية القديمة إشارات أخرى إلى هذه المرحلة المبكرة من الشعر العربي وإلى هذه التجارب الأولى التي مهدت لظهور القصيدة العربية، حيث يتحدثون عن قديم الشعر الصحيح، وعن أوائل

[1]- مصطفى صادق الرفاعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط2012.1، ص15.

[2]- محمد قدور، تاريخ الأدب في ميزان الاستشراف، دار الرواد، عمان، ط1، 2013، ص18.

[3]- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود شاكر، دار المغربي، جدة، ص11-12.

[4]- ابن قشيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ص164.

الشعراء وهي إشارات تعود بنا إلى عصور سحيقة بعضها يرتفع إلى سبعة قرون أو تسعة قبل الإسلام.[1]

أمّا النظرية الحديثة فتذهب إلى أن الرجز كان هو الصورة التي بدأ بها الشعر العربي، لأنه هو الوزن الشعري الذي كان العرب يستخدمونه حيث تضطرهم ظروف الحياة اليومية أو بعبارة أخرى هو الصورة العروضية التي كانت تتيح لهم فرصة ارتجال الشعر حين تدفعهم حاجات الحياة إلى ذلك، ومن الرجز نشأت البحور العروضية الأخرى ومعنى هذا أن الرجز قديم في المجتمع الجاهلي وأنه نشأ نشأة طبيعية مرتبطة بحياة العرب الاجتماعية.

ثم ساعدت طبيعته الموسيقية في ذيوعه وانتشاره، حتى أصبح الفن الشغف الذي يتغنى به أفراد العربي في حياتهم اليومية، حتى يكون هو الشكل الأدبي الذي سبق ظهور القصيدة العربية، والذي يمثل أولية الشعر العربي المبكرة، أما المقطوعات والأبيات محدودة العدد التي تروي لمن أطلقوا عليهم أوائل الشعراء.[2]

نشوء اللغة

اللغة من أعظم المظاهر المضارة، ففي سجل النفوس وصورة المجتمع واللغة العربية الجاهلية، بنحوها واشتقاقها وشتى فنونها البلاغية والعروضية، أوضح دليل على ما بلغه القوم من رقي عقلي ونضوج تفكيري، لقد تباينت أراء العلماء في تعيين المنشأ لهذه اللغة.

حيث ذهب حنّا الفاخوري إلى القول أن اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية وذلك من خلال مقارنتها بالنقوش التي وجدت حيراف أو النقوش صفوية.

ومعنى هذا أن اللغة يمكن أن نرجعها إلى الفترة التي تمتد من القرن الثالث بعد الميلاد إلى القرن الخامس، حيث تمثلت هذه اللغة في نصوص الشعر الجاهلي.[3]

[1]- الأسد ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط7، 1998، ص355.

[2]- محمد قدور تاج، الأدب في ميزان الاستشراف، ص20.

[3]- حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، لبنان، د.ط.د.ت، ص48-49.

كما يذهب أحمد الزيان في كتابه تاريخ الأدب العربي، أن اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية، إلا أنه لما خرج الساميون معهم تكاثر عددهم واختلفت لغتهم الأولى، وأصبح هذا الاختلاف يزداد عبر الزمن وأصبحت كل لهجة لغة قائمة بذاتها.[1]

ومنه نستخلص أنه من الصعب تحديد زمان ومكان نشوء الفصحى، يمكن ارجاع نشأتها مع تكامل الخط العربي في الأوائل القرن السادس وفي أواخر القرن الخامس أحذت شكلها النهائي، وهو القرن الذي تقاربت فيه لهجات القبائل وأصبحت الفصحى لغة أدبية عامة.

ومن الذين يوافقون رأي يوسف خليف أن اللغة الفصحى هي لغة قريش، نجد ابن خلدون في قوله : "كانت لغة قريش أفصح اللغات وأصرحا لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم" فبعدها عن الأعاجم صانها من الفساد والتأثر بأساليب العجم.[2]

كما نجد شوقي ضيف يوافق هو الآخر كاتبنا حيث يقول : "وقد أثبتت الدراسات أن لغة قريش كانت لها أسباب لوجود فصاحتها، فكانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية، وكان عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني والروحي والاقتصادي المادي.[3]

مقدمة القصيدة الجاهلية : محاولة جديدة لتفسيرها

إن الشعر الجاهلي سجل تظهر فيه معالم الحياة الجاهلية على حقيقتها، فهو يضعنا وجها لوجه أمام معالمها، كأننا نعيش في قبلها، فيكاد الجاهلي لا يترك حيوانا أو مشهدا دون أن يصوره، فقد وصف الفرس، الطلل، الصحراء، الليل، والمطر...

وهذا ما ذهب إليه الدكتور فوّار الشعّار في كتابه الأدب العربي، حيث يقول بأن الطلل هو أكثر ما تناوله الشاعر الجاهلي في شعره، به يبدأ كل وصف وكل غرض من أغراض الشعر، فقد كرّسوه

[1]- أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، ط14، 2011، ص15.

[2]- شوقي ضيف، نقلا عن الصحابي في فقه اللغة، ص13.

[3]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط6، 1974، ص133.

لاستهلال القصيدة، وهكذا تحول الطلل من وصف خارجي إلى وصف داخلي يعر فيه الشاعر عن وجدانه ومضاعفات الشعور لديه.

كما وصف الشاعر الجاهلي بيئة الصحراء التي انفك يجول فيها طالبا رزقه متنازعا بقاءه، فكان ارتيادها وجها من وجوه البطولة والفروسية فإذا هي جرداء قاحلة ليس فيها نبات، ثم انتقل الشاعر الجاهلي إلى وصف المطر الذي ينهم غزيرا، وكما وصف المطر وصف الحيوان رفيقه في أسفاره وشريكه في كفاحه ضد عوامل الطبيعة، ولعلّ الفرس والناقة كانتا من أهم تلك المواضيع لالتصاقهما بواقعه الجغرافي ووصفه للحيوان الذي يجتاز به الصحراء، جعله يصف ما يصادفه في طريقه كالبقرة الوحشية، لذا كان الشاعر الجاهلي لا يتخلف عن وصفه للناقة لارتباطه الحميم بها.[1]

كما نجد الدكتور أنور حميد وفشوان في كتابه دراسات في عصور الأدب العربي يقول بأنه من عادة الجاهليين في بناء قصائدهم الطوال والمنهج الذي تعارف عليه كبار شعرائهم، جاءت قصيدة زهير تنتظم في عدد العناصر الفنية والتي يمكن إجمالها على النحو التالي :

1- افتتاح القصيدة بالمقدمة الطللية، كعنصر فني تعارف عليه الشعراء في نباء قصائدهم.

2- الانتقال إلى وصف رحلة المحبوبة، وفيها تتبع الشاعر سير الركب ووصف الرحلة، من خلالها يسجّل كل المرئيات الطبيعية التي تعرض له في اقتفاءه أثر الركب.

3- الخلوص إلى الفرض الأصلي للقصيدة وهو المدح.

4- الخاتمة التي تنتهي بها القصيدة، ويختلف فيها الشعراء حسب مقاصدهم الابداعية ويراعي فيها في الغالب أن تكون ملائمة للموضوع.

نستخلص ممّا سبق أن هذه العناصر الفنية هي من مكونات القصيدة الجاهلية، وأنها متعددة الأغراض، وهي تفتقد لما يسمى بالوحدة العضوية.

[1]- فوّاز الشعّار، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، د.ط.د.ت، ص119-120.

وهذا ما أكده النقاد بأن افتقاد القصيدة لهذه الوحدة راجع إلى العرب لأنهم لا يرون الأشياء إلا مجردة ولا تجمعها علاقة ومن كانت وحدة النقد عند أدباء العرب وحدة بيت لا وحدة قصيدة.[1]

أشهر المقدمات الطللية

يمثل الطلل بداية المرحلة الشعورية التي تمر بها أحاسيس الشاعر الجاهلي، وتبسط بعدها أفكاره، لتتناسق في إطار موضوع متكامل فتساعد رؤيتها على خلق المناخ العاطفي المنبعث من تلك الآثار.

ومن أهم الشعراء الذين استهلوا مقدماتهم بالمقدمة الطللية هو امرئ القيس حيث عبّر في قصائده عن الألم والحزن وحسب رأي الدكتور "إيمان محمد العبيدي" أن امرئ القيس في ديوانه حرص على تقصي مكان الطلل ويحدده تحديدا دقيقا، وإن المتأمل في مقدمة امرئ القيس الطللية يرى أن الشاعر في أغلبها يبكي أرضا مفقودة فيودع هذه التجربة على عموميتها خصوصية بما يمنحها من رمزية تستشف من ذلك البكاء بعد ربطه بتكوين الشاعر النفسي والاجتماعي من جهة، وربطه بالتجربة الشعورية من جهة أخرى إذ اتخذ الشاعر لبكائه رمزين يصبان في المجرى نفسه فكان تارة يبكي زمنا ضائعا واخرى يبكي امرأة مفارقة أو هاجرة غير أن الجامع لهذين الرمزين يظل واحدا هو الأرض التي فقدها فغيرت بفقدانها مجرى حياته، فلم يكن يبكي زمنا لأن الزمن يمضي سواء في أرضه أم سواها، إنما اتخذ من وقوفه سببا لإظهار الألم على اندراس المكان حاملا معه كل الملذّات والمفاخر التي كان يتمتع بها آنذاك.[2]

إن المقدمة الطللية كانت أوليتها مع امرئ القيس في ابتداعها لكونه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العرب واتبعه فيها الشعراء منها استيفاء صحبه، والبكاء على الديار ورقة النسيب.[3]

ومنه نستخلص أن الطلل كان من أكثر الافتتاحات شيوعا وقدما في القصائد الجاهلية، وأنه ظهرت المقدمة الطللية مع امرئ القيس إلا أن حسين عطوان في كتابه مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي

[1]- أنور حميد وفشوان، دراسات في عصور الأدب العربي، خوازم العلمية للنشر والتوزيع، ط1، 2006، ص56-57.

[2]- ينظر : إيمان محمد العبيدي، شعراء الطبقة الأولى الجاهلية، دار دجلة، عمان، ط1، 2014. ص69-75.

[3]- سامي أبو زيد، الأدب الجاهلي، ص59.

يرى أن امرئ القيس قد حاكى شاعرا في بكاء الديار وذلك من خلال قصيدته.[1]

نفس الرأي يذهب إليه ابن سلام إلى ذلك من خلال قوله : "عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن جذام"[2]، وابن جذام هو الشاعر الذي حاكاه امرئ القيس.

وبه نستنتج من الرأيين أن هناك شعراء سبقوا امرئ القيس في البكاء وربما ما يجعلنا عدم الاطمئنان في صحة أن أولية الشاعر امرئ القيس في بكائه على الديار.

القصيدة الغزلية : صور أدرى من المقدمات الجاهلية

القصيدة الغزلية هي قصيدة تدفع بالشاعر للحديث عن لوعته بالمرأة التي تنال في هذه القصيدة حظوة أكبر، فيحرص الشاعر على نحت ملامحها نحتا يوافق ميوله ورغبته في التكوين الجمالي أو الجمال المثالي الذي يبحث عنه، فأول ما يلفت النظر في جمالية المرأة هو الشغف الشديد بهندسة الشكل، فينزع أغلب الشعراء إلى الوصف الذي يوافق حلمه وطموحه في فتاة أحلامه.

ويرى سامي أبو زيد في كتابه الأدب الجاهلي أن المقدمة الغزلية ارتبطت بالمقدمة الطللية فالحديث عن الطل يؤدي إلى الحديث عن الغزل ولذلك من الملاحظ كثير من القصائد التي تبدأ بالطل يتخللها الحديث عن المحبوبة، فالشاعر يصف مثل هذه المقدمات الغزلية سواء أكان وصفا حسيا أو معنويا ويعبرون في الوقت نفسه عن عواطفهم ومشاعرهم تجاه من يحبون.[3]

ويرى الكاتب محمد العبيدي المقدمة الغزلية تضم الحديث عن وله الشاعر ولوعته بالمرأة فيحرص على نحت ملامحها نحتا يوافق ميوله ورغبته في التكوين الجمالي حيث تعد لوحة النسيب أهمية عند الشاعر الجاهلي كونها الإطار الذي يظم مشاعر إنسانية.

[1]- حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية، دار علي الجندي، بيروت، ط3، 1996، ص

[2]- ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، شرح محمود شاكر، دار الغربي، جدة، ص55.

[3]- سامي أبو زيد، الأدب الجاهلي، ص63.

كما يربط المرأة بالمكان وصورها بصور متلاحمة لا تكاد تنفصل إحداهما عن الأخرى لأنه عند وجود المرأة تثبت الأرضية التي كانت تعيش فيها.[1]

ويرى الدكتور أنور حميد وفشوان في كتابه دراسات في عصور الأدب العربي بأن الغزل هو فن التعبير عن العلاقة الحميمية بين الرجل والمرأة، وهي علاقة ذات خصوصية تتميز بمشاعر الحب والرغبة في الآخرة، تسيرها دوافع شعورية كامنة في النفس الانسانية تكون سببا في تفعيل النشاط العقلي والوجداني للفرد تجاه من تقع عليه ميوله ورغباته، من ثم نجده موضوع هذا الغرض حول مشاعر الحب وما يدور في فلكه من هجر وصدّ وحرمان.

ويمثل الغزل حجما كبيرا من ديوان الشعر العربي، بل إن تقاليد الفن الشعري عند العرب قد استقرت على أن تبدأ القصائد بالحديث عن المرأة وديارها، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على سموّ مكانة المرأة في حياتهم، وإن الحديث عنها وهحولها يفتح مغاليق القلوب.

وقد عرف الشعر العربي ألوانا من هذا الفن في الجاهلية ولعل أبرز من ذلك الغزل الحسّي الذي يتناول فيه الشاعر المرأة بالوصف الجيّد لمحاسنها الظاهرة حيث يرى فيها مثالا للجمال الذي يهواه ويتعلق به، كما يتناول كذلك الحديث عن لهوه معها وذكر مغامراتها ومن هؤلاء الشعراء نجد امرئ القيس الذي ما فتئ يذكر في المرأة من مثل قوله : [2]

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ... ترائبها مصقولة كالسجنجل

وجيد كجيد الرتم ليس بفاحش ... إذا هي نصّته ولا بمعطل

ويرى شكري فيصل بقوله في كتابه "تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام" إن الثروة الشعرية كالقطعة الذهبية ذات الوجهين نقش الجاهليون على صفحتها الأولى عواطفهم التي ابتعتها فيهم الحب، وما يؤدي إليه هذا الحب وصل أو هجرة، ومن سعادة أو شقاء، ومن لذّة أو غصّة، وصوروا هذه العواطف

[1]- إيمان محمد العبيدي، شعراء الطبقة الأولى الجاهلية، دار دجلة، عمان، ط1، 2014 ص119.

[2]- أنور حميد وفشوان، دراسات في عصور الأدب العربي، خوازم العلمية للنشر والتوزيع، ط1، 2006،ص41-42.

وأفنوا في تصويرها ملكاتهم ومواهبهم أما الصفحة الأخرى فقد جمعوا عليها أغراضهم الأخرى ونثروا في أطرافها كل الفون والأغراض الثانية كائنة ما كانت هذه الفنون والأغراض.[1]

ويرى اميل ناصف أن بعض الشعراء يستهلون قصائدهم بالخمرة فإنهم لا يلبثون أن يعودوا إلى العزل ليسبتوا المرأة مشاعرهم زما يعانونه من عذاب الهجرة وألم الفراق بكل وصدق وأمانة ومنه تمكن القول أن المرأة كل شيء في نظر الجاهلي وأكرم عليه من ناقته أو جواده، وقد أخطأ من شاع أنها كانت عنصرا محتقرا لأنها كانت عرضة للسبي، ومجلبة للعار، وإن ما رحل إلينا من أشعار يحمل صورة مشرفة عنها فضلا عن أنها تشكل الموضوع الذي أولاه الشعراء أولى اهتماماتهم وذلك لما كان الاستهلال بالعزل وسيلة للولوج إلى هدف آخر.[2]

مقدمة الفروسية :

تميزت القصائد الطوال في الشعر الجاهلي بمقدماتها، والتي تتمثل في المقدمة الفروسية حيث أن هذه القضية تعد قضية مهمة في الشعر الجاهلي فحين نجد الكاتب سامي يوسف أبو زيد في كتابه الأدب الجاهلي يقول أن المقدمات الفروسية هي مقدمات تقوم على رفض عزل المرأة لزوجها وتلقانا عند عمرو بن الود وعمرو بن براق في معرض الفخر بشجاعتهم وقوتهم أمام المرأة وفئة الشعراء الأجواد الذين جمعوا الجود والفروسية في قصائدهم أمثال حاتم الطائي ولبيد بن ربيعة العامري.

ولا شك أن هذه المقدمة تعبر عن مشاعر نفسية تتعلق بالمصير والوجود من ناحية وبالخوف من الفقر وضياع المال من ناحية أخرى، ومن هنا نجدها تدور بين موقفين متناقضين : موقف الفارس الجواد الذي يندفع نحو الحرب دون خوف أو تردد أو يبذل ماله في إكرام ضيفه، وموقف الزوجة التي تحرص على حياة هذا الزوج خشية أن يموت في الحرب، وتحرص على ماله خشية إملاق.

[1]- شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم، بيروت، ط5، ص23.

[2]- اميل ناصف، أروع ما قيل في الغزل، دار جرس، لبنان، د.ط.د.ت، ص11.

وتمثل مقدمات حاتم الطائي نماذج على لوم الزوجة بعلها الذي يتلف أمواله على المحتاجين ويصل بها رحمه وقد يجود بها على الضيوف في مثل قوله : [1]

لا تعذليني على مال وصلت به ... رحما وخير سبل المال ما وصل

يسعى الفتى وحمام الموت يدركه ... وكل يوم يدني الفتى الأجلا

وقوله مخاطبا العاذلة التي هبّت بليل تلومه :

تلوم على إعطائي المال ضلّة ... إذا ضنّ بالمال البخيل وصرّدا

أريني جوادا مات هزلا لعلني... أرى ما ترين أو بخيلا مخلّدا

الشيب والمشيب :

مقدمات الشيب والمشيب هي مقدمات يبكي فيها الشاعر على أيامه ويتذكر أيام شبابه ويتحسر على الشيب الذي حل به فالشاعر الجاهلي في هذه المقدمات كان يصور أحاسيسه ومشاعره وهذا ما نجد الكاتب سامي يوسف أبو زيد[2] في كتابه الأدب الجاهلي يقول بأن مقدمات مثل هذا النوع من المقدمات يصور الشعراء أحاسيسهم ومشاعرهم نتيجة ذهاب الشباب رمز القوة والفتوة وحلول الشيب رمز الضعف والهرم محله، فليس أمام الشعراء بعد هذا الوضع الراهن إلاّ أن يتذكروا الأيام الماضية، فمثل هذه الأشعار التي تقال في بكاء الشباب تدخل ضمن باب الفخر الذاتي، وينسب هذا اللون من المقدمات لعمرو بن قميئة فقد روى أبو الفرج أنه كان شابا جميلا حسن الوجه مديد القامة ويقال إنه عمّر حتى جاوز التسعين، ومعنى ذلك أنه أخذ يتذكر شبابه الضائع وقد رماه الدهر بمصائبه فنسمعه يقول:

كأني وقد تجاوزت تسعين حجّة ... خلعت بها عني عذاب لجامي

على الراحتين مرة وعلى العصا ... أنوء ثلاثا بعدهن قيامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أدري ... فكيف بمن يرمى وليس برامي

[1]- سامي أبو زيد، الأدب الجاهلي، ص72-73.

[2]- المرجع نفسه، ص67

كما نجد أيضا الشاعر عمرو بن أحمد يتحصر على شبابه، ويأ لم لفراقه، وقد أدركته الشيخوخة إذ يقول:

بان الشباب وأفنى ضعفك العمر ... ولله درّك أي العيش تنتظر

هل أنت طالب شيء لست مدركه ؟ ... أم لقبك عن ألآفه وطر ؟

ومن خلال ما سبق نستخلص بأن بكاء الشباب في مقدمات القصائد هذه فجميعها كان يدور حول أسف على ضياع الشباب وتوجّع عليه، وجزع من المشيب.

كما نجد حسين عطوان[1] يرى أن البكائيات الشباب ليست مقدمات لقصائد بل أبيات ومقطوعات قد تطول وقد تقصر غلبت عليها الصفة الذاتية.

ومنه نستنتج أن المقدمة الفروسية لقيت حظا وافرا في الشعر الجاهلي إنها تتحدث عن الحماية والمحبة التي يتميز بها الفارس لكي يحمي زوجته ومن أهم الشعراء الذين نجدهم يظهرون فروسيتهم عروة بن الورد، حاتم الطائي، هاذان الشاعران قد صوروا مظهر الفروسية في جانبيها الحسّي والمعنوي.

الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية :

كان الشاعر الجاهلي قبليا كل شيء فهو للقبيلة التي توجه شعره لمنفعتها، ما دام شعر بأنه عضو فيها ينتفع منها وينفعها، فإذا خلعته القبيلة، كما خلع الشنفرى تركها شاكيا متظلما مؤنبا متوعدا وحاول الاتصال بقبيلة غريبة واضعا شعره في خدمتها، فكيفما دار الشاعر الجاهلي يجد القبيلة تلازمه، ويمكن جعل هذه المهمة في ثلاثة أقسام تبنى عليها المنزلة الشعرية، هو خطيب القبيلة أولا ، يحرضها بشعره على الحرب إذا رآها مفيدة وضرورية.

والشاعر الجاهلي مرشد القبيلة وواعظها، فهو يتولى إعطاء الارشادات الأخلاقية والاجتماعية، فزهير بن سلمى قدم بشعره أمثال حكيمة واعظا وإرشادا وهذه الحكم مستمدة من الواقع الذي عاشه.

فضلا عن منزلة الخطيب المحرّض والمرشد يمكن أن نضيف منزلة المؤرخ فالشاعر يحفظ مفاخر قبيلته وأيامها التي انتصرت فيها، وتلك التي لقيت فيها الهزيمة فيحدد الأسباب ويحذر، كما يحفظ تاريخ

[1] – حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ط3، 1966، ص242

القبائل الحليفة الأخرى والمعادية فيركّز على المفاخر والمثالب.[1]

الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية :

لاشك في أن ميل الإنسان إلى الدفاع عن نفسه غريزة من الغرائز الطبيعية التي ربما تمتد لتشمل من ينتمي إليهم نسبا، وبطبيعة الحال تختلف وسائل ذلك وتتعدد، فكان الدفاع إذن من العوامل الرئيسية لظهور هذا الموضوع الشعري عند العرب.

حيث نجد الدكتور حميد آدم ثويني في كتابه الشعر الاجتماعي يؤكد على الفردية والذاتية عند الشعراء والمتمثلة بالنفس والقبيلة وما اتصل بها من قيم تعارفوا عليها، جعلت الشعراء يتغنون بها، ويتباهون بما اتصف به قومهم من تلك القيم، فكان ألذ الأحاديث عند العربي أن يعرف قومه بما يريده الجميع من خصال تتمثل بالشجاعة والسخاء والجود، والعطاء والمروءة والوفاء وحماية الجار وعراقة الأصل، وكثرة المال والولد، فاستغل الشعراء تلك الخصال استغلالا كبيرا في تسجيل مفاخر قومهم وأفعالهم وإن كان لا يدل ولا يمكن الحكم على اضمحلال الذاتية الفردية، لأن الشاعر حين ينطق بمآثر قومه وقبيلته، لا ينسى نفسه وأسرته بأي وجه من الوجوه، والنصوص التي تبرز من خلالها الذاتية الفردية والأسرية الضيقة كثيرة جدا، والشاعر إن أظهر بقوة في شعره المضمون الذاتي، لم يترك المضمون الجماعي الذي يتطلب منه بحكم الظروف الاجتماعية أن يغني ذاتيته فيه، فينشد أمجاده وانتصاراته، ويصور آماله، وتلك قيم لا تجعل الشاعر يحس بالغيرة لأنها تنبع من نفسه التي تعد ممثلة لبعض أجزاء القبيلة، فيبدأ فخره بضمائر تدل على الجماعة في قول الطفيل الغنوي، وهو يشيد بشجاعة قومه : [2]

وإنّا أناس ما تزال سوامنا ... تنور نيران العدو مناسمه

وليس لنا حيّ نضاف إليهم ... ولكن لنا عود شديد شكائمه

فالوجدان الجماعي والقومي حسّه شديد عند الشاعر حتى أنه يرفض أن يكون قومه يضافون إلى غيرهم، بل هم عود واحد قوي، فقصائد الشعر ومقطوعاتهم ذات المضمون الجماعي إذن لا تبتعد عن الوجدان

[1]- حسين شعيب، الأدب في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2004 ص93.

[2]- حميد آدم ثويني، الشعر الاجتماعي . دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص257-259.

القبلي وكأنها لما تحمله من تعبيرات وجدان الشاعر قومي يحس ويعيش أزمات أمته وأفراحها في العصر الحاضر، حيث يلهج بأمجادها المتوارثة، فيما يتضح بقول عمرو بن كلثوم :

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يبينا

ونحن إذا عماد الحي خرّت ... على الأحفاض نمنع من يلينا

ندافع عنهم الأعداء قدما ... ونحمل عنهم ما حمّلونا

ومن خلال ما سبق نصل إلى أن هذا النوع من الشعر قد يصل عند الشعراء إلى مستوى بعيدا وعاليا من الزهو والمبالغة.[1]

الرواة المحترفون :

كان الرواة في العصر الجاهلي عملهم الأساسي هو رواية الشعر الجاهلي حيث ظهرت مدرستان مع مطلع العصر العباسي هي الكوفة والبصرة وأهم هؤلاء الرواة نجد عمرو بن العلاء وخلف الأحمر ومحمد بن السائب الكلبي والمفضل الضبي وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب والبدو.

فمدرسة الكوفة كانت تتميز بتضخم روايتها وعرفت في الحديث النبوي بالوضع والانحال وسماها مالك بن نبي بدار الضرب.

حيث يرى شوقي ضيف أن "رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة"[2] ويرجع الأمر إلى أن السبب في تقدم مدرسة الكوفة والبصرة هو أنه كان على رأس البصرة عمرو بن العلاء وكان من مؤسسي المدرسة النحوية إضافة أيضا أنه أعلم الناس بالغريب والغربية، بينما كان رأس الكوفة حمادة فكان من الموالي، ويروي عن الهيثم بن عدي أنه كان يقول "ما رأيت رجلا أعلم بكلام العرب من حمادة".

ومنه فإن الكوفة هي التي حملت رواية خلف ورواية حمادة، أما البصرة فقد حمل بعض الرواة وعلى رأسها الأصمعي الذي يقوم فيها مقام المفضل الضبي في الكوفة.

[1]- حميد آدم ثويني، الشعر الاجتماعي ،ص259-260.

[2]- ينظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، ط6-1974، ص151.

المقدمة الخمرية :

من المتعارف عليه أن الحياة الجاهلية كان يملأها الفراغ، فأراد العربي أن يملأ ذلك الفراغ باللجوء إلى الخمرة والتي تعد وسيلة للترف واللهو، فهناك من شربها وافتخر بها ودعا غيره إليها.

ويرى حسني عبد الجليل في كتابه الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص أنه قد اشتهر بالحديث عن كؤوسها، ودنانها، وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدي بن زيد العبادي الخيري، وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم.[1] ومنه فأهم الشعراء الذين تناولوا الخمرة وأنشدوها في شعرهم وراحوا يصفون كلما يحيط بها نجد طرفة بن العبد حيث يقول :

لولا ثلاث هنّ من لذّة الفنى ... وجذّك لن أحفل متى قام عودي

فمنهم سبتي العادات بشرية ... كميت متى ما تعل بالماء تزيد

فطرفة بن العبد يعتبر الخمرة من أسباب اللهو والمجون ووسيلة السعادة، فالجاهليين كانوا يفتخرون بالخمرة ويصفون مجالس الشراب وإلى جانب طرفة بن العبد نجد أيضا عمرو بن كلثوم يتحدث في أشعاره عن الخمرة وما تفعله بشاربها ففي معلقته الشهيرة ابتدأ بالخمرة مقارنة بأهل زمانه، الذين تحدثوا في بداية معلقاتهم بقول :

ألا هي بصحنك فأصبحينا ... ولا تبقى خمورا إلا ندرينا

وعليه فإن الخمرة كانت إحدى متع وسعادة الجاهلين لدرجة أنهم لم يطيقوا أن يفارقوها.

[1]- حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي قضايا وفنون المؤسسة المختارة، القاهرة، مصر، ط1، 2001، ص299.

نقد وتقويم

من خلال درستنا لهذا الكتاب لاحظنا أن العنوان يتطابق مع المحتوى، وأنّ الباحث يوسف خليف كان وفيا لما أعلنه في مقدمته، حيث فصّل في كل مشكلات التي طرحها، والتي تندرج ضمن حقل الأدب الجاهلي وهي:

المقدمة الشعرية، المقدمة الطللية، الرواية والتدوين... إلخ

أمّا من الجانب البيبليوغرافي في كتابه دراسات في الشعر الجاهلي، هو اعتماده بالأساس على مصدرين أساسيين :

المصادر القديمة التي تتحدث عن الشعر الجاهلي ونشأته مثل

- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي
- الشعر والشعراء لبان قتيبة
- كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

والمصادر الحديثة لبعض المستشرقين ككتاب تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ، كما أنّ الباحث وضع هوامش شرح فيها أهم المصطلحات الغامضة .

لكن ما يعاب على الباحث أنه لم يذكر في مقدمة كتابه المنهج الذي اتبعه، بالإضافة لعدم تقيده بمنهجية واضحة المعالم حيث لا يوجد خاتمة في كتابه ولا قائمة المصادر المعتمد عليها بالإضافة إلى التكرار في التطرق إلى القضايا النقدية

خاتمة

وفي الأخير نستخلص من خلال دراستنا الكتاب الموسوم "دراسات في الشعر الجاهلي" للدكتور يوسف خليف عدّة نتائج أهمها :

- كان دافع يوسف خليف الأول لتأليف هذا الكتاب هو الكشف عن الغموض الموجود في الشعر الجاهلي.
- أشار إلى أبرز المقدمات الطللية التي تميز بها الشعر القديم.
- درس بدايات تشكل القصيدة العربية على شكل مقطوعات يترجلها الرجل عند الضرورة حيث تعود أولياتها إلى مائة وخمسين من الزمان قبل الإسلام.
- عدّد أهم المراحل التي مرت بها القصيدة العربية لاكتمال نضوجها.
- ذكر أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور الشعر وهو سبب الفراغ الذي كان يملأ الحياة العربية القديمة.
- وفي الأخير قدم محاولة جديدة لتقسيم العصر الجاهلي التي تقوم على ثلاثة عصور أدبية (العصر الأول البسوس وارتبطت بميلاد القصيدة العربية، والعصر الثاني عصر داحس والغبراء الذي شهد ازدهار مدرسة الصنعة، والعصر الثالث عصر ذي قار وهو الذي يحدد أواخر العصر الجاهلي).

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

أوّلا: الكتب

1. أحمد الفاضل، تاريخ وعصور الأدب العربي، دار الفكر اللبناني بيروت، ط1 سنة 2003.
2. أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار المعرفة، بيروت، ط14، 2011.
3. الأسد ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط7، 1998.
4. اميل ناصف، أروع ما قيل في الغزل، دار جرس، لبنان، د.ط.د.ت.
5. أنور حميد وفشوان، دراسات في عصور الأدب العربي، خوازم العلمية للنشر والتوزيع، ط1. 2006.
6. إيمان محمد العبيدي، شعراء الطبقة الأولى الجاهلية، دار دجلة، عمان، ط1، 2014.
7. بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق، 1973، ج1.
8. الجاحظ، الحيوان، طبعة الحلبي، د.ت.د.ط، ج1.
9. حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي قضايا وفنون المؤسسة المختارة، القاهرة، مصر، ط1. 2001.
10. حسين شعيب، الأدب في العصر الجاهلي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 2004.
11. حسين عطوان، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية، بيروت ط3، 1966.
12. حميد آدم ثويني، الشعر الاجتماعي . دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008
13. حنا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربي، دار الجيل، لبنان، د.ط.د.ت.
14. ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، محمود شاكر، دار المدني، د.ط.د.ط.ج1 .
15. سامي يوسف أبو زيد، الأدب الجاهلي، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011.
16. شعبان عبد العاطي، معجم الوسيط، دار المجمع اللغة ع، مصر، ط4، 2004.
17. شكري فيصل، تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، دار العلم، بيروت، ط5.
18. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط6-1974.
19. قيس كاظم الجنابي-أبو الشعر- دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2007.
20. ابن قشيبة، الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.

21. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1990 .
22. محمد أحمد ابن طباطبا، عيار الشعر، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 2005.
23. محمد قدور تاج، الأدب في ميزان الاستشراف، دار المجتمع العربي، عمان، ط1، 2013.
24. مصطفى صادق الرفاعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط2012.1.
25. ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1956.
26. يوسف خليف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار الغريب، القاهرة، ط1 سنة 1981.

ثانيا: المواقع الإلكترونية

- https://ar.wikipedia.org/wiki/

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
كلمة شكر	-
إهداء	-
بطاقة فنية	-
مقدمة	أ
مدخل	02
الفصل الأول: تلخيص الكتاب	
تمهيد	09
أولية الشعر الجاهلي	13
تطور الديانات في مكة	15
مقدمة في القصيدة الجاهلية	22
الشعر الجاهلي بين القبلية والفردية	27
الفصل الثاني: دراسة الكتاب	
الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين	31
بدايات تشكل القصيدة العربية	33
مقدمة القصيدة الجاهلية	35
نقد وتقييم	47
خاتمة	49
قائمة المصادر و المراجع	51
فهرس المحتويات	54